دروس من القرآن

تأليف الشيخ صالح بن فوزان الفوزان

الدرس الأول

التوحيد في القرآن الكريم

١- أهمية التوحيد وعاقبة الإعراض عنه

قد يقول قائل - وقد قيل هذا - ما بالكم دائما تهتمون بالتوحيد وتكثرون الكلام فيه؟! ولا تتناولون قضايا المسلمين في الوقت الحاضر، الذين يقتلون ويشردون في الأرض وتلاحقهم دول الكفر في كل مكان.

فنقول وبالله التوفيق:

التوحيد هو الأصل الذي بنيت عليه الملة الحنيفية؛ فالاهتمام به اهتمام بالأصل، وإذا تدبرنا القرآن الكريم وجدنا أنه بين التوحيد تبيانا كاملا، حتى إنه لا تخلو سورة من سور القرآن إلا وفيها تناول للتوحيد، وبيان له ونهى عن ضده. وقد قرر الإمام ابن القيم - رحمه الله - أن القرآن كله في التوحيد؛ لأنه إما إخبار عن الله وأسمائه وصفاته، وهذا هو التوحيد العلمي الذي هو توحيد الربوبية، وإما أمر بعبادة الله وحده لا شريك له ونهي عن الشرك، وهذا هو التوحيد العملي الطلبي وهو توحيد الألوهية، وإما أمر بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ونهي عن معصية الله ومعصية رسوله ﷺ وهذا من حقوق التوحيد ومكملاته.

وإما إخبار عما أعد الله للموحدين من النعيم والفوز والنجاة والنصر في الدنيا والآخرة، أو إخبار عما حل بالمشركين من النكال في الدنيا والآخرة، أو إخبار عما حل بالمشركين من النكال في الدنيا وما أعد لهم في الآخرة من العذاب الدائم

والخلود المؤبد في جهنم، وهذا فيمن حقق التوحيد، وفيمن أهمل التوحيد(١).

إذن فالقرآن كله يدور على التوحيد. وأنت إذا تأملت السور المكية تجد غالبها في التوحيد؛ لأن النبي ﷺ مكث في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى التوحيد وينهى عن الشرك. ما نزلت عليه أغلب الفرائض من زكاة وصيام وحج وغير ذلك من أمور الحلال والحرام، وأمور المعاملات، ما نزل هذا إلا بعد الهجرة في المدينة، إلا الصلاة فقد فرضت عليه في مكة ليلة المعراج حين أسري به ﷺ(١) ولكن كان هذا قبيل الهجرة بقليل.

---

(١) انظر: مدارج السالكين للإمام ابن القيم (٣/٤٦٨) بتصرف.

ولذلك كان غالب السور المكية التي نزلت على النبي ﷺ قبل الهجرة، كلها في قضايا التوحيد، مما يدل على أهميته، وأن الفرائض لم تنزل إلا بعد أن تقرر التوحيد، ورسخ في النفوس، وبانت العقيدة الصحيحة؛ لأن الأعمال لا تصح إلا بالتوحيد، ولا تؤسس إلا على التوحيد.

وقد أوضح القرآن أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - أول ما يبدءون دعوتهم بالدعوة إلى التوحيد قبل كل شيء، قال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾(٣)، وكل نبي يقول لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾(٤)، ها هو شأن الرسل البداءة بالتوحيد.

وكذلك أتباع الرسل من الدعاة والمصلحين أول ما يهتمون بالتوحيد؛ لأن كل دعوة لا تقوم على التوحيد فإنها دعوة فاشلة، لا تحقق أهدافها، ولا تكون لها نتيجة. كل دعوة تهمش التوحيد ولا تهتم به؛ فإنها تكون دعوة خاسرة في نتائجها. وهذا شيء مشاهد ومعروف.

(١) كما في حديث الإسراء المتواتر، ومن آحاده الحديث المتفق عليه عن أنس: البخاري: كتاب التوحيد، باب (٣٧)، رقم (٧٥١٧)، (١٣/٥٨٣). ومسلم: كتاب الإيمان، باب (٧٤)، رقم (١٦٢).

(٢) سورة النحل آية: ٣٦.

(٣) سورة الأنبياء آية: ٢٥.

(٤) سورة الأعراف آية: ٥٩.

وكل دعوة تركز على التوحيد فإنها تنجح بإذن الله وتثمر وتفيد المجتمع، كما هو معروف من قضايا التاريخ.

ونحن لا نهمل قضايا المسلمين بل نهتم بها، ونناصرهم ونحاول كف الأذى عنهم بكل وسيلة، وليس من السهل علينا أن المسلمين يقتلون ويشردون، ولكن ليس الاهتمام بقضايا المسلمين أننا نبكي ونتباكى، ونملأ الدنيا بالكلام والكتابة، والصياح والعويل؛ فإن هذا لا يجدي شيئا.

لكن العلاج الصحيح لقضايا المسلمين، أن نبحث أولا عن الأسباب التى أوجبت هذه العقوبات التي حلت بالمسلمين، وسلطت عليهم عدوهم.

ما السبب في تسلط الأعداء على المسلمين؟

حينما ننظر في العالم الإسلامي، لا نجد عند أكثر المنتسبين إلى الإسلام تمسكا بالإسلام، إلا من رحم الله، إنما هم مسلمون بالاسم؛ فالعقيدة عند أكثرهم ضائعة: يعبدون غير الله، يتعلقون بالأولياء والصالحين، والقبور والأضرحة، ولا يقيمون الصلاة، ولا يؤتون الزكاة، ولا يصومون، ولا يقومون بما أوجب الله عليهم، ومن ذلك إعداد القوة لجهاد الكفار!! هذا حال كثير من المنتسبين إلى الإسلام، ضيعوا دينهم فأضاعهم الله عز وجل.

وأهم الأسباب التي أوقعت بهم هذه العقوبات هو إهمالهم للتوحيد، ووقوعهم في الشرك الأكبر، ولا يتناهون عنه ولا ينكرونه! من لا يفعله منهم فإنه لا ينكره؛ بل لا يعده شركا. كما يأتي بيانه إن شاء الله. فهذه أهم الأسباب التي أحلت بالمسلمين هذه العقوبات.

ولو أنهم تمسكوا بدينهم، وأقاموا توحيدهم وعقيدتهم على الكتاب والسنة، واعتصموا بحبل الله جميعا ولم يتفرقوا لما حل بهم ما حل قال الله - تعالى -: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ

الْأُمُورِ (٤١)}(١)، فبين أنه لا يحصل النصر للمسلمين إلا بهذه الركائز التي ذكرها الله - سبحانه وتعالى - وهي: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأين هذه الأمور في واقع المسلمين اليوم؟ أين الصلاة عند كثير ممن يدعون الإسلام؟!

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾(٢) لكن أين الشرط لهذا الوعد؟ ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾(٣) فبين أن هذا الاستخلاف وهذا التمكين لا يتحقق إلا بتحقق شرطه الذي ذكره وهو عبادته وحده لا شريك له، وهذا هو التوحيد، فلا تحصل هذه الوعود الكريمة إلا لمن حقق التوحيد بعبادة الله وحده لا شريك له، وعبادة الله تدخل فيها الصلاة والصيام والزكاة والحج، وجميع الطاعات.

ولم يقل سبحانه: يعبدونني فقط بل أعقب ذلك بقوله: ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾(٤)؛ لأن العبادة لا تنفع مع وجود الشرك، بل

لا بد من اجتناب الشرك أيا كان نوعه، وأيا كان شكله، وأيا كان اسمه. وهو: "صرف شيء من العبادة لغير الله عز وجل".

هذا هو سبب النجاة والسلامة والنصر والتمكين في الأرض، صلاح العقيدة وصلاح العمل. وبدون ذلك فإن العقوبات والنكبات، والمثلات قد تحل بمن أخل بشيء مما ذكره الله من القيام بهذا الشرط، وهذه النكبات، وهذا التسلط من الأعداء سببه إخلال المسلمين بهذا الشرط وتفريطهم في عقيدتهم ودينهم، واكتفاؤهم بالتسمي بالإسلام فقط.

---

(١) سورة الحج الآيتان: ٤٠، ٤١.

(٢) سورة النور آية: ٥٥.

(٣) سورة النور آية: ٥٥.

(٤) سورة النور آية: ٥٥.

٢- معنى التوحيد

إذن ما التوحيد الذي هذه أهميته، وهذه مكانته؟

التوحيد: مأخوذ من وحد الشيء إذا جعله واحدا، والواحد ضد الاثنين والثلاثة فأكثر، فحاصله أنه ضد الكثرة فالشيء الواحد هو الشيء المستقل المتوحد الذي لا يشاركه غيره.

وأما في الشرع فالتوحيد هو: "إفراد الله بالعبادة" بمعنى: أن تجعل العبادة كلها لله ﷻ: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾(١)؛ بدليل قوله - تعالى -: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾(٢)، وقوله - تعالى -: ﴿۞ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾(٣)، وقوله - تعالى -: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤)﴾(٤).

هذا هو التوحيد في الشرع: إفراد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه.

٣- أنواع التوحيد

التوحيد: أنواع ثلاثة مستقرأة من كتاب الله عز وجل. وليس تقسيم التوحيد إلى ثلاثة جاء من قبيل الرأي، أو من قبيل الاصطلاح، وإنما هو مستقرأ من كتاب الله عز وجل.

(١) سورة الأنفال آية: ٣٩.

(٢) سورة الذاريات آية: ٥٦.

(٣) سورة النساء آية: ٣٦.

(٤) سورة غافر آية: ١٤.

النوع الأول: توحيد الربوبية وهو: "إفراد الله جل وعلا بأفعاله"، من الخلق والرزق والإحياء والإماتة وتدبير الأمور، فيعتقد المرء أن الله وحده الخالق الرازق المدبر الحي الذي لا يموت.

النوع الثاني: توحيد الألوهية وهو: "إفراد الله - جل وعلا - بأفعال العباد"، التي يتقربون بها إليه - سبحانه وتعالى -: كالدعاء والخوف والرجاء والرهبة والرغبة والتوكل والاستقامة والاستغاثة والذبح والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادة. فيجب أن تكون العبادة بجميع أنواعها لله - سبحانه - لا يصرف منها شيء لغير الله. هذا هو توحيد العبادة، أو توحيد الألوهية، وهو التوحيد العملي، وهو توحيد الطلب والقصد وتوحيد الطاعة.

النوع الثالث: توحيد الأسماء والصفات، وهو: "الإيمان بما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات".

هذه أنواع التوحيد مستقرأة من كتاب الله عز وجل. فكل آية في القرآن تتحدث عن أفعال الله من الخلق والرزق والإحياء والإماتة وتدبير الأمور فهي في توحيد الربوبية، وهذا كثير في القرآن، قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩)﴾(١).

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١)﴾(٢).

---

(١) سورة المؤمنون الآيات: ٨٤، ٨٩.

(٢) سورة يونس آية: ٣١.

وهكذا كل آية فيها ذكر خلق السماوات والأرض، وخلق المخلوقات، فإن هذا في توحيد الربوبية.

وكل آية فيها ذكر العبادة؛ بأن تتحدث عن الأمر بعبادة الله والنهي عن الشرك، فإن هذا في توحيد الألوهية.

وكل آية تتحدث عن أسماء الله وصفاته، فإن هذا في توحيد الأسماء والصفات.

فكل هذه الأنواع في كتاب الله، ولذلك قال العلماء: التوحيد ثلاثة أقسام: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

ما جاءوا بهذا من عندهم، وإنما استقرءوه من كتاب الله - سبحانه وتعالى -، وسيأتي لهذا زيادة بيان إن شاء الله(١).

٤- التوحيد عند المتكلمين

هناك من يقول: التوحيد نوع واحد فقط، وهو توحيد الربوبية وهو: الاعتراف بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، إلى آخر ما جاء من أفعال الله وصفاته جل وعلا. وعلى هذا جميع علماء الكلام والنظار الذين بنوا عقيدتهم على علم الكلام. عقائدهم موجودة، وإذا قرأت في كتبهم لا تجد فيها إلا إثبات

توحيد الربوبية، فمن اعترف به عندهم فهو الموحد وليس عندهم توحيد الألوهية ولا توحيد الأسماء والصفات، ولذلك لا يعدون عبادة القبور ودعاء الأموات شركا، وإنما يقول أماثلهم: هذا توجه لغير الله، وهو خطأ. ولا يقولون: هذا شرك.

وبعضهم يقول: إن هؤلاء الذين يدعون الأموات، ويستغيثون بالمقبورين ليسوا بمشركين؛ لأنهم لا يعتقدون أن هؤلاء الأموات أو هذه المعبودات تخلق وترزق وتدبر مع الله، فما داموا لم يعتقدوا ذلك فإنهم ليسوا مشركين، ولا يعد عملهم هذا شركا. وهو إنما اتخذوا هذه الأشياء وسائل وسائط بينهم وبين الله، شفعاء.

---

(١) انظر ص (٢٠) من هذا الكتاب.

هذه مقالتهم، كما قال المشركون من قبل: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾(١) وقال - تعالى - عنهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾(٢).

ويقول علماء الكلام: إن عبادة القبور والتعلق بالأموات والاستغاثة بهم ليس بشرك، وإنما هي توسل، وطلب للشفاعة، واتخاذ وسائط إلى الله عز وجل. ولا يكون شركا؛ إلا إذا اعتقدوا أن هذه الأشياء تخلق وترزق وتدبر مع الله !!

هذا يصرحون به في كتبهم وفي كلامهم.

والذي ينكر من أهل الكلام على من يقع في هذا الأمر يقول: هذا من باب الخطأ، وهؤلاء جهال وقعوا في هذا الجهل لا عن قصد؛ بل لجهلهم.

لكن الأكثر لا ينكرون عليهم؛ بل يقولون: هذا اتخاذ وسائط وشفعاء عند الله وليس شركا.

وأنا لم أتقول على القوم شيئا لم يقولوه؛ بل هذا موجود في كتبهم التي ردوا بها على أهل التوحيد، ودافعوا بها عن أهل الشرك.

وأما الأسماء والصفات فإثباتها عندهم يقتضي التشبيه، فنفوها عن الله وهؤلاء هم: الجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية، كلهم نفوا توحيد الأسماء والصفات، تنزيها لله -

بزعمهم - عن مشابهة المخلوقين، فصار التوحيد منحصرا عندهم في توحيد الربوبية فقط، وليس عندهم توحيد الألوهية ولا توحيد الأسماء والصفات.

وينكرون على من يقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام، حتى إن كاتبا عصريا منهم يقول: تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام هو من التثليث! بلغت الوقاحة به إلى أن يشبهه بدين النصارى. والعياذ بالله.

---

(١) سورة الزمر آية: ٣.

(٢) سورة يونس آية: ١٨.

٥- الخطأ في تقسيم التوحيد

ومن المعاصرين من يقسم التوحيد إلى أربعة أقسام، فيقول: التوحيد أربعة أنواع: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الحاكمية. ويستند في هذا إلى أن التقسيم اصطلاحي، وليس توقيفيا، فلا مانع من الزيادة على الثلاثة.

ويقال لهذا: ليس التقسيم اصطلاحيا، وإنما يرجع في التقسيم إلى الكتاب والسنة. والسلف حينما قسموا التوحيد إلى ثلاثة أقسام استقرءوها من الكتاب والسنة.

أما الحاكمية فهي حق. يجب أن يكون التحاكم إلى شرع الله ﷻ لكن هذا داخل في توحيد العبادة لأنه "طاعة الله ﷻ"، السلف ما أهملوا توحيد الحاكمية حتى يأتي واحد متأخر فيضيفه، بل هو عندهم داخل في توحيد العبادة "توحيد الألوهية"! لأن من عبادة الله - جل وعلا - طاعته بتحكيم شرعه، فلا يجعل قسما مستقلا. وإلا لزم من ذلك أن تجعل الصلاة قسما من أقسام التوحيد، وتجعل الزكاة قسما، والصيام قسما، والحج قسما، وكل أنواع العبادة أقساما للتوحيد، ويجعل التوحيد أقساما لا نهاية لها! وهذا غلط. بل أنواع العبادة كلها تندرج تحت قسم واحد وهو توحيد الألوهية، فإنه جامع لها مانع من دخول غيرها معها.

ومنهم من يزيد على الأقسام الأربعة قسما خامسا ويسميه: اتباع الرسول ﷺ. وهذا غلط. فاتباع الرسول ﷺ حق ولا بد

منه، لكن اتباع الرسول ﷺ من لوازم التوحيد، ولذلك لا تصح شهادة: أن لا إله إلا الله، إلا بشهادة أن محمدا رسول الله.

فمن لازم الشهادة لله بالتوحيد الشهادة للرسول ﷺ بالرسالة، وهذا من لوازم التوحيد وليس قسما مستقلا من أقسام التوحيد. ومخالف التوحيد يقال له مشرك أو كافر. ومخالف المتابعة يكون مبتدعا.

هذه أقوال المخالفين لأهل السنة في تقسيم التوحيد وهم بين مفرط ومفرط.

المفرط هو: الذي زاد على تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام.

والمفرط هو: الذي اقتصر على نوع واحد وأهمل البقية؛ بل أهمل الأهم، الذي هو المطلوب، وهو توحيد الألوهية.

أما توحيد الربوبية، فجميع الأمم مقرة به، لم ينكره إلا شذاذ من الخلق، أنكروه تكبرا وعنادا مع اعترافهم به في قرارة أنفسهم. فجميع الخلق مقرون بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر، لكن ليس هذا هو التوحيد المطلوب.

٦- التوحيد الذي طولب به البشر

التوحيد المطلوب هو توحيد الألوهية، ولهذا كان الرسل كلهم يبدءون دعوتهم لأقوامهم بقولهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾(١) يدعون إلى توحيد الألوهية كما أخبر القرآن عنهم ذلك لأن توحيد الألوهية هو الذي تنكر له البشر واجتالتهم الشياطين عنه.

وأما توحيد الربوبية فهو شيء حاصل وموجود ومستقر في النفوس. والاقتصار عليه والاكتفاء به لا ينجي العبد، ولا يدخله في زمرة الموحدين المؤمنين، ولذلك قاتل الرسول ﷺ كفار قريش، وهم يقرون بأن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت، قاتلهم واستحل دماءهم حتى يقروا بتوحيد الألوهية؛ قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»(٢)(٣).

(١) سورة الأعراف آية: ٥٩.

(٢) البخاري الجهاد والسير (٢٧٨٦)، مسلم الإيمان (٢١)، الترمذي الإيمان (٢٦٠٦)، النسائي تحريم الدم (٣٩٧١)، أبو داود الجهاد (٢٦٤٠)، ابن ماجه الفتن (٣٩٢٨)، أحمد (١/١١).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٤٦)، ومسلم (رقم ٢١).

فهذا دليل على أن المطلوب الأعظم من الخلق هو توحيد الألوهية، ولذلك لم يقل ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقروا بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت؛ لأنهم مقرون بهذا. بل قال: «حتى يقولوا لا إله إلا الله»(١) أو "يشهدوا أن لا إله إلا الله".

٧- بيان أنواع التوحيد الثلاثة من القرآن

سبق أن قلنا: إنها مستقرأة من القرآن الكريم. والآيات التي تؤخذ منها أنواع التوحيد الثلاثة كثيرة، منها:

سورة الفاتحة - وهي أول سورة في المصحف - فيها أنواع التوحيد الثلاثة: فقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾(٢) فيه

توحيد الربوبية؛ لأن الآية أثبتت ربوبية الله لجميع العالمين - وهم كل ما سوى الله - والرب هو المالك المدبر.

وقوله: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾(٣) فيه توحيد الأسماء والصفات؛ لإثبات وصف الله في الآيتين بالرحمة والملك، وإثبات أسمائه: الرحمن، الرحيم، المالك، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾(٤) فيه توحيد الألوهية؛ لدلالة الآية على وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة والاستعانة.

كذلك سورة الناس - وهي آخر سورة في المصحف - فيها أنواع التوحيد الثلاثة: فقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١)﴾(٥) هذا توحيد الربوبية. ﴿مَلِكِ النَّاسِ (٢)﴾(٦) هذا توحيد الأسماء والصفات. ﴿إِلَٰهِ النَّاسِ (٣)﴾(٧) هذا توحيد الألوهية.

(١) البخاري الصلاة (٣٨٥)، الترمذي الإيمان (٢٦٠٨)، النسائي تحريم الدم (٣٩٦٧)، أبو داود الجهاد (٢٦٤١)، أحمد (٣/٢٢٥).

(٢) سورة الفاتحة آية: ٢.

(٣) سورة الفاتحة الآيتان: ٣، ٤.

(٤) سورة الفاتحة آية: ٥.

(٥) سورة الناس آية: ١.

(٦) سورة الناس آية: ٢.

(٧) سورة الناس آية: ٣.

كذلك أول نداء في المصحف هو في نوعي التوحيد، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾(١).

لما ذكر - سبحانه وتعالى - أقسام الناس الثلاثة (المؤمنين والكافرين والمنافقين) وجه عباده نحو الاهتداء بهداية القرآن، فعقب ذلك بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾(٢) وهو نداء عام لكافة الخلق لأمرهم جميعا بإفراد الله بالعبادة وعدم إشراك أي أحد معه. وهذا هو توحيد الألوهية.

ثم جاء بتوحيد الربوبية دليلا عليه، فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾(٣).

أليست هذه أفعال الله جل وعلا؟ هذا توحيد الربوبية، ذكره - سبحانه وتعالى - دليلا على توحيد الألوهية وبرهانا عليه. فكما أنه يفعل هذه الأشياء وحده فإنه لا يستحق العبادة أحد غيره؛ بل هي حق خالص له سبحانه.

ذكر في هذه الآية نوعي التوحيد: توحيد الألوهية؛ لأنه المقصود الأعظم، وذكر توحيد الربوبية دليلا على الألوهية ومستلزما له، وأمر بذلك جميع الناس كما قال في آية أخرى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾(٤) فأخبر أن هذين العالمين العظيمين (عالم الجن وعالم الإنس) لم يخلقا إلا للقيام بعبادة الله وإفراده بها وتوحيده في ألوهيته.

(١) سورة البقرة الآيتان: ٢١، ٢٢.

(٢) سورة البقرة آية: ٢١.

(٣) سورة البقرة الآيتان: ٢١، ٢٢.

(٤) سورة الذاريات آية: ٥٦.

ثم نهى عن الشرك في آخرها فقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾(١):

أندادا: أي: شركاء تصرفون لهم شيئا من العبادة وأنتم تعلمون أنه لا شريك له في ربوبيته يشاركه في هذه الأمور: خلق السماوات والأرض وإنزال المطر وإنبات النبات. أنتم تعلمون أنه لا أحد يشارك الله في هذه الأمور، فكيف تشركون معه غيره في العبادة؟!

وقال - سبحانه وتعالى -: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾(٢) هذا في توحيد الألوهية، والإله معناه: المعبود، والألوهية: العبادة والحب.

ومعنى الآية: ومعبودكم بحق معبود واحد، لا إله إلا هو، أي: لا معبود بحق سواه.

وقوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)﴾(٣) هذا داخل في توحيد الأسماء والصفات؛ إذ فيه إثبات اسمين لله، وإثبات صفة الرحمة.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾(٤) هذا في توحيد الربوبية، ذكره الله دليلا وبرهانا على توحيد الألوهية؛ ولذا أخبر أن في ذلك آيات، أي دلالات وبراهين على استحقاق الله للعبادة دون غيره.

ففي هذه الآية أقسام التوحيد الثلاثة، وهكذا تجدها متجاورة في القرآن الكريم.

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٢.

(٢) سورة البقرة آية: ١٦٣.

(٣) سورة الفاتحة آية: ٣.

(٤) سورة البقرة آية: ١٦٤.

٨- الحكمة من تقرير القرآن لتوحيد الربوبية

والقرآن إنما يذكر توحيد الربوبية - مع أن الكفار مقرون به - من أجل أن يبين دلالته ويقيمه برهانا على توحيد الألوهية، فيحتج عليهم بما أقروا به من باب الإلزام لهم: كيف تقرون لله بالربوبية، ولا تقرون له بالألوهية والعبودية؟!

كيف تصرفون العبادة لمن لا يشارك الله في شيء من مخلوقاته؟! هذا من التناقض.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤)﴾(١) ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾(٢)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾(٣) لو سلط الله عليهم الذباب ما استطاعوا أن ينتصروا لأنفسهم منه، والذباب أضعف شيء، فلو

سلط الله الذباب والبعوض على الناس ما استطاعوا أن يتخلصوا منه، يقتلون منه ما يقتلون ثم يكثر عليهم ويغمرهم.

وقيل: المعنى لو أن الذباب أخذ شيئا مما على الصنم من الطيب والزينات التي يجعلونها عليه، فإن الصنم لا يستطيع أن يسترد ما أخذه الذباب منه. ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾(٤): ضعف الطالب: هو المشرك، والمطلوب: هو الصنم، وقيل الذباب.

---

(١) سورة الأحقاف آية: ٤.

(٢) سورة لقمان آية: ١١.

(٣) سورة الحج آية: ٧٣.

(٤) سورة الحج آية: ٧٣.

إذا كان كذلك فكيف تجعل هذه شركاء لله الخالق الرازق المحيي المميت القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء، سبحانه وتعالى؟! أين العقول؟! وأين الأفهام؟! نسأل الله العافية.

٩- التوحيد في آية الكرسي

آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾(١).

هذه أعظم آية في كتاب الله تشتمل على ربوبية الله وعبادته وعلى أسماء الله وصفاته، جمع الله فيها بين النفي والإثبات: نفي النقائص والعيوب عنه، وإثبات الكمال له - سبحانه وتعالى -.

وفي أولها توحيد الألوهية: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾(٢) أي: لا معبود بحق إلا هو.

ثم ذكر توحيد الربوبية بقوله: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾(٣) وهذا فيه إثبات الحياة والقيومية لله.

وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾(٤): هذا نفي، نفى الله عن نفسه النقص والعيب، من صفات النقص المنفية (النوم والسنة).

قوله: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾(٥): هذا إثبات لربوبيته، فهو مالك السماوات والأرض ومن فيهن.

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٥٥.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٥٥.

(٣) سورة البقرة آية: ٢٥٥.

(٤) سورة البقرة آية: ٢٥٥.

(٥) سورة البقرة آية: ٢٥٥.

وقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾(١): هذا نفي، نفى أن يشفع أحد عنده إلا بإذنه؛ وذلك لكمال عظمته سبحانه وتعالى. وأن أحدا لا يجرؤ أن يشفع عنده إلا بعد إذنه.

قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾(٢): هذا إثبات، فيه إثبات كمال العلم لله يعلم كل شيء: الماضي والحاضر والمستقبل، لا يخفى عليه شيء، علمه شامل محيط.

قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾(٣): هذا نفي، نفى عن الخلق أن يعلموا شيئا من علم الله، إلا بما أطلعهم الله عليه، وإلا فإنهم لا يعلمون الغيب، لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه.

وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾(٤): الكرسي مخلوق من مخلوقات الله، وهو مخلوق عظيم، السماوات والأرض بالنسبة إليه كسبعة دراهم ألقيت في فلاة - وهي الصحراء الواسعة - أو في ترس - وهو صحن كبير - ما تكون سبعة دراهم في فلاة أو في ترس؟! فكرسي الله جل وعلا أكبر من السماوات والأرض، وهو غير العرش، والعرش أعظم من الكرسي.

وما الكرسي في العرش إلا كحلقة حديد ألقيت في أرض فلاة.

هذا الكرسي، فكيف بعرش الرحمن سبحانه وتعالى؟!

إذن فالمخلوقات بالنسبة لله صغيرة جدا وليست بشيء. وإذا كان مخلوق من مخلوقات الله - وهو الكرسي - وسع السماوات والأرض وهو دون العرض، فالله - جل وعلا - أعظم من كل شيء.

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٥٥.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٥٥.

(٣) سورة البقرة آية: ٢٥٥.

(٤) سورة البقرة آية: ٢٥٥.

وقوله: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾(١): أي: لا يشق عليه - سبحانه - ولا يثقله، ولا يكرثه حفظ السماوات والأرض، وحمايتهما من الفساد والتغير، وإمساكهما ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾(٢)، ﴿رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾(٣) ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾(٤) والله - سبحانه - ليس محتاجا إلى السماوات والأرض، ولا إلى العرش، ولا إلى الكرسي، وليس محتاجا إلى المخلوقات، وإنما مخلوقاته هي المحتاجة إليه - سبحانه وتعالى -.

وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾(٥) بذاته وقدره وقهره فوق عباده ﴿الْعَظِيمُ (٢٥٥)﴾(٦) الجامع لصفات العظمة والكبرياء.

فهذه الآية اشتملت على أنواع التوحيد الثلاثة.

١٠- التوحيد في سورة الكافرون والإخلاص

في القرآن الكريم سور اختصت بتوحيد الألوهية مثل: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ

دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾(٧) هذه السورة مخصصة لتوحيد الألوهية، توحيد العبادة.

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٥٥.

(٢) سورة الحج آية: ٦٥.

(٣) سورة الرعد آية: ٢.

(٤) سورة فاطر آية: ٤١.

(٥) سورة البقرة آية: ٢٥٥.

(٦) سورة البقرة آية: ٢٥٥.

(٧) سورة الكافرون.

وسبب نزولها هو: أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ أن يعبدوا ربه سنة، وهو يعبد آلهتهم سنة(١) فأنزل الله هذه السورة في البراءة من عبادة الأوثان وتخصيص الله - جل وعلا - بالعبادة.

وقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)﴾(٢) كرر هذه الجمل للتأكيد.

وقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾(٣) هذا من باب البراءة وتيئيس المشركين من هذا المطمع.

وفي القرآن أيضا سورة خاصة بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، هي: سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾(٤)، فيها نفي وفيها إثبات، نفي النقائص عن الله، وإثبات صفات الكمال له - سبحانه وتعالى -، كما في آية الكرسي. وهذه السورة خالصة في صفات الله ولهذا جاء أن صحابيا كان يكثر قراءة هذه السورة، فسئل عن ذلك؟ فقال: إني أحبها؛ لأنها صفة الرحمن، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «أخبروه أن الله تعالى يحبه»(٥)(٦).

١١- أنواع التوحيد في سورة الزمر

سورة الزمر من أولها إلى آخرها تدور على التوحيد بأنواعه الثلاثة: توحد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات. وأنت إذا تأملت السورة من أولها إلى آخرها وجدتها كذلك.

(١) أخرجه ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم في تفسيريهما.

(٢) سورة الكافرون آية: ٢.

(٣) سورة الكافرون آية: ٦.

(٤) سورة الإخلاص.

(٥) البخاري التوحيد (٦٩٤٠)، مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٨١٣)، النسائي الافتتاح (٩٩٣).

(٦) متفق عليه من حديث عائشة: البخاري: كتاب التوحيد، باب (١) رقم (٧٣٧٥)، (١٣/٤٢٥) ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، رقم (٨١٣).

فقوله: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾(١) وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤)﴾(٢) هذا ونحوه في توحيد الألوهية، فالسورة كلها تضمنت أنواع التوحيد الثلاثة.

وكذلك غيرها من سور القرآن وآياته متضمنة أنواع التوحيد الثلاثة فلا تكاد تجد سورة من القرآن تخلو من ذكر التوحيد،

وبعض السور خالصة في نوع واحد أو أكثر من أنواع التوحيد. وأكثر السور المكية في بيان التوحيد، والدعوة إليه.

وهذا يدل على أهمية التوحيد ومكانته من الدين، وأنه يجب على المسلمين العناية به تعلما وتعليما وعملا؛ قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ (٣) وهذا خطاب لرسول الله ﷺ وكل واحد من أمته، أمرهم بالتعلم قبل العمل، تعلم العلم، ولا سيما علم التوحيد؛ لأن العمل إذا لم يؤسس على علم! فإنه لا يكون صحيحا.

فلا بد أن يتعلم الإنسان أولا ثم يعمل، ولا يعمل بدون علم.

ولذا قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦)﴾(٤) ﴿شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾(٥) يعني: نطق بلسانه وقال: لا إله إلا الله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦)﴾(٦)، ما يشهدون به من معنى هذه الكلمة ومقتضاها وما تدل عليه، ويعملون بها بعد العلم والمعرفة.

(١) سورة الزمر الآيات: ١-٣.

(٢) سورة الزمر الآيات: ١١-١٤.

(٣) سورة محمد آية: ١٩.

(٤) سورة الزخرف آية: ٨٦.

(٥) سورة الزخرف آية: ٨٦.

(٦) سورة الزخرف آية: ٨٦.

فلا بد من ثلاثة أمور: النطق بلا إله إلا الله وإعلان ذلك ومعرفة معناها، والعمل بمقتضاها ظاهرا وباطنا.

فالقرآن إذن كله في التوحيد وأنواعه، وحقوقه ومكملاته، وجزاء من عمل به وجزاء من أعرض عنه، كله يدور على هذه المعاني.

هذا هو التوحيد الذي يجب على المسلمين أن يهتموا به قبل كل شيء؛ حتى يتحقق لهم النصر والعز والتمكين في الأرض، فهذه الأمور لا تتحقق إلا بتحقيق التوحيد الذي خلق الله الخلق من أجله وأمرهم به من أولهم إلى آخرهم.

فكيف يهون من شأن التوحيد؟! فيقال: الناس الآن في مشكلات! المسلمون في ضيق وفي مضايقة من الأعداء!

يجب أن يعلم أن أعظم قضايا المسلمين هو الإتيان بالتوحيد، فتجب العناية به قبل كل شيء، وأن نخلص الناس من الجهل بالتوحيد، ونخلصهم من الشرك، والبدع والخرافات؛ حتى يتحقق لهم النصر كما تحقق لمن كان قبلهم من قرون هذه الأمة الذين حققوا التوحيد قولا وعلما وعملا، فمكن الله لهم في الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾(١)، لكن بشرط: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)﴾(٢) أي: الخارجون عن طاعة الله عز وجل.

هذا هو التوحيد، وهذه أنواعه، وهذه أهميته، وهذه دلالة القرآن الكريم عليه.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل التوحيد المتمسكين بالكتاب والسنة، الداعين إلى الله على بصيرة، بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

ونسأله أن ينصر دينه ويعلي كلمته ويصلح ولاة أمور المسلمين وعلماءهم.

---

(١) سورة النور آية: ٥٥.

(٢) سورة النور آية: ٥٥.

الدرس الثاني

سورة الفاتحة

١- منزلتها ومكانتها

هذه السورة لها مكانة عظيمة في القرآن الكريم؛ إذ هي أعظم سورة فيه، كما أن أعظم آية في القرآن آية الكرسي. ولأهميتها كتبت في أول المصحف، ولهذا سميت فاتحة الكتاب، وهذا يدل على أهميتها ومكانتها؛ لأنها ما قدمت وجعلت أول سورة في المصحف إلا لأهميتها.

٢- حكم قراءتها في الصلاة

ومن أهميتها أيضا أن الله - سبحانه وتعالى - أوجب قراءتها في كل ركعة في الصلاة. وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى وجوب قراءتها في الصلاة، وأن من لم يقرأ بها في صلاته؛ فإن صلاته لا تصح؛ لقوله النبي ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»(١)(٢).

وهذا في حق المستطيع لقراءتها، أما العاجز الذي لا يستطيع قراءتها لعجزه عن حفظها؛ فإنه يقرأ ما تيسر معه من آيات القرآن غير الفاتحة. وإذا كان لا يحسن شيئا من القرآن؛ فإنه يأتي بالذكر: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ لقوله النبي ﷺ «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، فإن كان معك قرآن فاقرأ، وإلا فاحمد الله وكبره وهلله ثم اركع...»(٣)(٤).

(١) البخاري الأذان (٧٢٣)، مسلم الصلاة (٣٩٤)، الترمذي الصلاة (٢٤٧)، النسائي الافتتاح (٩١١)، أبو داود الصلاة (٨٢٢)، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (٨٣٧)، أحمد (٥/٣١٦)، الدارمي الصلاة (١٢٤٢).

(٢) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت: البخاري: كتاب الأذان، باب (٩٥)، رقم (٧٥٦)، (٢/٣٠٦). ومسلم: كتاب الصلاة رقم (٣٩٤).

(٣) أبو داود الصلاة (٨٥٦).

(٤) أخرجه من حديث رفاعة بن رافع أبو داود: كتاب الصلاة، باب (١٤٨)، رقم (٨٦١)، (١/٣٧٧) والترمذي: كتاب الصلاة، باب (١١٠)، رقم (٣٠٢)، (٢/١٠٠).

وقد ذهب جمهور العلماء إلى وجوبها على الإمام والمنفرد، واختلفوا في قراءتها في حق المأموم، وعلى ثلاثة أقوال:

القول الأول: إنها واجبة على كل مصل: إماما كان أم مأموما؛ أم منفردا لقوله النبي ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»(١) وهذا عام في كل مصل. وقال ﷺ: «لعلكم تقرءون خلف إمامكم؟! قالوا: نعم، يا رسول الله، قال: لا تفعلوا إلا بفاتحة الكتاب؛ فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها»(٢)(٣) وهذا مذهب الإمام الشافعي وجمع من المحدثين كالإمام البخاري وغيره، يرون وجوب قراءتها على الإمام والمأموم والمنفرد.

القول الثاني: إنها لا تجب على المأموم؛ لأن قراءة الإمام تجزئ عنه؛ لقوله ﷺ: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة»(٤)(٥) ولكن هذا الحديث في سنده مقال.

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)﴾(٦)، قالوا في وجه الاستدلال: إن الله - جل جلاله - أمر بالاستماع لقراءة القرآن والإنصات. والآية نزلت في شأن الاستماع في الصلاة، يعني: إذا قرأ الإمام فعلى المأموم أن ينصت ويستمع. فدلت الآية على أنه لا قراءة على المأموم؛ لأن الإمام يقرأ لنفسه وللمأمومين. وهذا القول هو مذهب أبي حنيفة وأحمد.

(١) البخاري الأذان (٧٢٣)، مسلم الصلاة (٣٩٤)، الترمذي الصلاة (٢٤٧)، النسائي الافتتاح (٩١١)، أبو داود الصلاة (٨٢٢)، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (٨٣٧)، أحمد (٥/٣١٦)، الدارمي الصلاة (١٢٤٢).

(٢) البخاري الأذان (٧٢٣)، مسلم الصلاة (٣٩٤)، الترمذي الصلاة (٢٤٧)، النسائي الافتتاح (٩٢٠)، أبو داود الصلاة (٨٢٣)، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (٨٣٧)، أحمد (٥/٣١٦)، الدارمي الصلاة (١٢٤٢).

(٣) أخرجه بنحوه من حديث عبادة بن الصامت: أبو داود: كتاب الصلاة، باب (١٣٦)، رقم (٨٢٤)، (١/٣٦٢). والنسائي: كتاب الافتتاح، باب (٢٩)، رقم (٩١٩)، (١/٤٧٩).

(٤) ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (٨٥٠)، أحمد (٣/٣٣٩).

(٥) أخرجه من حديث جابر: أحمد برقم (١٤٦٩٨)، (٥/١٢٥). وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب (١٣)، رقم (٨٥٠)، (١/٤٦٣). واللفظ المذكور للبيهقي في سننه: كتاب الصلاة، باب (٢٦٥)، رقم (٢٨٩٨)، (٢/٢٢٨).

(٦) سورة الأعراف آية: ٢٠٤.

القول الثالث: وهو قول الإمام مالك واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة من العلماء، أنها تجب على المأموم في الصلاة السرية التي لا يجهر فيها الإمام، كالظهر والعصر، فأما في الصلاة الجهرية فإنها تكفي قراءة الإمام، وعلى المأموم أن ينصت ويستمع.

قالوا: وبهذا تجتمع الأدلة: فالأدلة التي توجب قراءة الفاتحة تحمل على الصلاة السرية، والأدلة الأخرى والآية الكريمة تحمل على الصلاة الجهرية. وهذا القول هو أعدل الأقوال إن شاء الله.

٣- أسماء سورة الفاتحة

هذه السورة لها عدة أسماء، كل اسم يدل على معنى، والشيء إذا كثرت أسماؤه دل ذلك على فضله.

فتسمى: فاتحة الكتاب؛ لأنها تفتتح بها كتابة المصاحف.

وتسمى: أم القرآن؛ لأن القرآن يدور على ما تشتمل عليه هذه السورة من المعاني، فكل المعاني التي اشتمل عليها القرآن وفصلها في آياته، اشتملت عليها هذه السورة بصفة مجملة.

وتسمى الرقية؛ لأنها يرقى بها المريض؛ والدليل على ذلك ما في الصحيح: «أن نفرا من الصحابة أضافوا حيا من أحياء العرب فلم يضيفوهم، فلدغ كبيرهم - لدغته حية أو عقرب - ولم يجدوا له علاجا، فجاءوا إلى هؤلاء النفر من الصحابة فطلبوا منهم الرقية. فقالوا: إنكم لم تضيفونا، وإنا لا نرقي إلا بجعل،

يعني: بأجر، فحدوا لهم قطيعا من الغنم، فقام أحد الصاحبة فقرأ عليه سورة الفاتحة، فقام الرجل كأنما نشط من عقال. فأخذوا الغنم، ولكن لم يتصرفوا فيها حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ فقدموا على الرسول وذكروا له القصة، فقال: (وما أدراك أنها رقية)؟! ثم إنه قال لهم: (اقتسموا هذه الغنم، واضربوا لي معكم بسهم»(١)(٢) وقال: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله»(٣)(٤).

وتسمى الشافية؛ لأنها تشفي بإذن الله من الأمراض، تشفي القلوب، وتشفي الأبدان: تشفي القلوب من الشكوك والأوهام والوساوس، وتشفي الأبدان من الآلام، كما حصل لهذا اللديغ.

وتسمى: السبع المثاني؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧)﴾(٥) المراد بالسبع المثاني: سورة الفاتحة لأنها سبع آيات، ووصفت السبع بأنها مثاني؛ لأنها تكرر قراءتها في كل ركعة. وقال النبي ﷺ عنها: «هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»(٦)(٧). وتسمى: الصلاة؛ كما جاء في الحديث القدسي: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»(٨)..(٩) ثم فسر الصلاة بالفاتحة.

(١) البخاري الطب (٥٤١٧)، مسلم السلام (٢٢٠١)، الترمذي الطب (٢٠٦٣)، أبو داود البيوع (٣٤١٨)، ابن ماجه التجارات (٢١٥٦)، أحمد (٣/١٠).

(٢) متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري: البخاري: كتاب الإجارة، باب (١٦)، رقم (٢٢٧٦)، (٤/٥٧١). ومسلم: كتاب السلام، باب (٢٣).

(٣) البخاري الطب (٥٤٠٥).

(٤) أخرجه البخاري من حديث ابن عباس: كتاب الطب، باب (٣٤)، رقم (٥٧٣٧)، (١٠/٢٤٤).

(٥) سورة الحجر آية: ٨٧.

(٦) البخاري تفسير القرآن (٤٢٠٤)، النسائي الافتتاح (٩١٣)، أبو داود الصلاة (١٤٥٨)، ابن ماجه الأدب (٣٧٨٥)، أحمد (٤/٢١١)، الدارمي الصلاة (١٤٩٢).

(٧) أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلى: كتاب التفسير سورة (١) باب (١) رقم (٤٤٧٤)، (٨/١٩٦).

(٨) مسلم الصلاة (٣٩٥)، الترمذي تفسير القرآن (٢٩٥٣)، أحمد (٢/٢٨٦)، مالك النداء للصلاة (١٨٩).

(٩) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة: كتاب الصلاة، باب (١١)، رقم (٣٩٥)، (٢/٣٢٤).

٤- عدد آياتها

هذه السورة هي سبع آيات بنص القرآن، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧)﴾(١) فقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾(٢) هذه آية ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣)﴾(٣) الآية الثانية ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾(٤) الآية الثالثة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾(٥) الآية الرابعة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾(٦) الآية الخامسة ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾(٧) الآية السادسة ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾(٨) هي الآية السابعة.

هذا مذهب الجمهور في عدد آياتها.

وذهب الشافعي إلى أن قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾(٩) آية واحدة، وهي الآية السابعة، وأن الآية الأولى من السورة هي: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١)﴾(١٠).

ولهذا الاختلاف يوجد في بعض المصاحف كتابة رقم (١) بعد البسملة، إشارة إلى أن البسملة آية من الفاتحة، وفي بعضها لا

يوجد هذا الرقم تبعا للقول بأنها ليست آية منها.

---

(١) سورة الحجر آية: ٨٧.

(٢) سورة الفاتحة آية: ٢.

(٣) سورة الفاتحة آية: ٣.

(٤) سورة الفاتحة آية: ٤.

(٥) سورة الفاتحة آية: ٥.

(٦) سورة الفاتحة آية: ٦.

(٧) سورة الفاتحة آية: ٧.

(٨) سورة الفاتحة آية: ٧.

(٩) سورة الفاتحة آية: ٧.

(١٠) سورة الفاتحة آية: ١.

فالبسملة عند الشافعي آية من الفاتحة، وأما الجمهور فالبسملة - عندهم - ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من سور القرآن، إلا التي في سورة النمل فإنها بإجماع العلماء بعض آية من تلك السورة، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠)﴾(١). وأما في غير ذلك فهي آية مستقلة، وليست خاصة بسورة معينة، ولذا لا يوجد في أي مصحف

كتابة رقم (١) عليها في سائر السور غير سورة الفاتحة؛ وذلك لأنها آية مستقلة نزلت للفصل بين السور، ولذا يؤتى بها في أول كل سورة إلا في أول سورة براءة؛ لأنها لم تنزل على الرسول ﷺ في أول هذه السورة كما نزلت عليه في بقية السور، وقيل في تعليل ذلك: إن براءة مكملة لسورة الأنفال، وقيل: لأنها نزلت بالسيف والعذاب وافتتحت بالبراءة فلا يناسب تقديم ذكر الرحمة عليها. والله أعلم.

٥- شرح الاستعاذة والبسملة

أما (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)؛ فهذه قطعا ليست من الفاتحة، وإنما يؤتى بالاستعاذة؛ عملا بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)﴾(٢)، فإذا أراد المسلم أن يقرأ القرآن فإنه يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم في بداية قراءته؛ من أجل أن يتحصن من الشيطان فلا يشوش عليه قراءته.

ومعنى أعوذ: ألتجئ إلى الله جل وعلا، وأحتمي به من هذا العدو. فالعوذ هو الالتجاء إلى الله من الشيطان.

والشيطان، المراد به كل مارد عات من الإنس والجن والدواب. من شاط الشيء إذا اشتد، أو من شطن إذا بعد؛ لأن الشيطان بعيد من الخير.

---

(١) سورة النمل آية: ٣٠.

(٢) سورة النحل آية: ٩٨.

الرجيم؛ فعيل بمعنى مفعول، أي: المرجوم؛ لأن الشياطين ترجم بالشهب من السماء، فلا يسترقون السمع وترجم كذلك بذكر الله سبحانه وتعالى. فالشيطان مرجوم بمعنى: أنه مطرود ومبعد عن الخير. فالمسلم يعتصم بربه ويلتجئ إليه من هذا الشيطان؛ لئلا يضره، ويستعيذ به من همزه ونفخه ونفثه، وهكذا ورد في استعاذة النبي ﷺ(١).

والهمز المراد به: الصرع؛ لأن الشيطان يصرع الإنسان أحيانا فيجن ويتخبط، فإصابة الجنون هذه من الشيطان، قوله تعالى: ﴿الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾(٢) المراد به: الصرع. فالشيطان يداخل الإنسان ويجري منه مجرى الدم، ويصرعه أحيانا، وإذا لم يحمه الله منه فإنه يؤذيه بالوساوس والأوهام والصرع.

والنفخ معناه: الكبر؛ لأن الكبر من الشيطان، فهو الذي ينفخ في الإنسان.

والنفث: الشعر، قال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤)﴾ (٣) فالشعر من نفث الشيطان، إلا ما كان من الشعر الطيب النزيه فإنه ممدوح؛ قال ﷺ: «إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر حكما»(٤)(٥) لكن غالب الشعر أنه سيء، وأنه من نفث الشيطان، وقيل: المراد بنفثه: السحر؛ قال - تعالى -: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤)﴾(٦).

(١) كما في حديث الاستعاذة في الصلاة عن أبي سعيد الخدري: أخرجه أحمد برقم (١١٤٩٣)، (٤/١٢٩) وأبو داود: كتاب الصلاة، باب (١٢٢)، رقم (٧٧٥)، (١/٣٤٤) والترمذي: كتاب الصلاة، باب (٦٥)، رقم (٢٤٢)، (٢/٩) وبنحوه أخرجه ابن ماجه عن جبير بن مطعم (٨٠٧) وعن ابن مسعود (٨٠٨).

(٢) سورة البقرة آية: ٢٧٥.

(٣) سورة الشعراء آية: ٢٢٤.

(٤) الترمذي الأدب (٢٨٤٥)، أبو داود الأدب (٥٠١١)، أحمد (١/٢٦٩).

(٥) أخرجه من حديث ابن عباس: أحمد: برقم (٢٤٢٤)، (١/٧٠١)، وروى طرفه الأول عن جماعة من الصحابة. وأخرجه أيضا أبو داود: كتاب الأدب، باب (٩٥)، رقم (٥٠١١)، (٥/١٧٤).

(٦) سورة الفلق آية: ٤.

والاستعاذة مستحبة قبل القراءة في الصلاة وفي غيرها؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)﴾(١) وهذا مطلق تدخل فيه حال الصلاة وغيرها.

"بسم الله الرحمن الرحيم": الباء للاستعانة، وفيه فعل مقدر، تقديره: أستعين باسم الله، أو أتحصن باسم الله. واسم الله مفرد مضاف يعم جميع أسماء الله تعالى، فتقول: أتحصن وأتبرك بأسماء الله سبحانه وتعالى؛ لأن أسماء الله تعالى

مباركة؛ قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨)﴾ (٢) والنبي ﷺ كان في دعاء الاستفتاح يقول: «وتبارك اسمك»(٣)، فاسم الله مبارك، وأنت تتبرك بأسماء الله، فقولك: باسم الله، الجار والمجرور متعلق بمحذوف، أي: أتبرك وأستعين باسم الله.

و (الله): علم على الإله المعبود الحق، وهو من أعظم أسماء الله - سبحانه وتعالى - والله معناه: المألوه المعبود، من أله يؤله إذا عبد، فهو المعبود سبحانه وتعالى. المقصود في كل حاجة.

(الرحمن): اسم من أسماء الله، يتضمن صفة من صفاته وهي الرحمة.

(الرحيم): كذلك، فالرحمن والرحيم من أسمائه، والرحمة من صفاته، وكل اسم من أسماء الله جل وعلا؛ فإنه يتضمن صفة من صفاته.

والفرق بين الرحمن والرحيم: أن الرحمن: ذو الرحمة العامة لجميع المخلوقات، وأما الرحيم: فهو خاص بالمؤمنين؛ قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣)﴾(٤).

(١) سورة النحل آية: ٩٨.

(٢) سورة الرحمن آية: ٧٨.

(٣) الترمذي الصلاة (٢٤٢)، النسائي الافتتاح (٩٠٠)، أبو داود الصلاة (٧٧٥)، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (٨٠٤)، أحمد (٣/٥٠)، الدارمي الصلاة (١٢٣٩).

(٤) سورة الأحزاب الآيتان: ٤٣.

٦- تفسير آيات الفاتحة

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾(١) الحمد هو: الثناء على الله سبحانه وتعالى، فالله سبحانه يحمد بمعنى: يثنى عليه بأسمائه وصفاته وأفعاله سبحانه وتعالى. والحمد أعم من الشكر؛ لأن الشكر لا يكون إلا على الأفعال، وأما الحمد فيكون على الأسماء والصفات وعلى الأفعال، فالحمد أعم من الشكر.

وهذا هو الفرق بين الحمد والشكر.

و "أل" في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾(٢)، للاستغراق أي: جميع المحامد لله - سبحانه وتعالى - ملكا واستحقاقا.

فلا يستحق الحمد على الإطلاق إلا الله - جل وعلا -؛ لأنه هو المنعم ذو الإنعام المطلق، فله الحمد المطلق سبحانه وتعالى، ففي قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾(٣)، أي: جميع المحامد لله سبحانه وتعالى.

وأما المخلوق فإنه يحمد على قدر ما يجري منه من الخير، ولكن الله هو الذي جعل فيه هذا الخير، فأصل الحمد، لله عز وجل.

قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾(٤)، الرب هو: المربي لخلقه - سبحانه وتعالى - بنعمه، وهو المالك لهم، فالرب: يطلق ويراد به المربي، ويطلق ويراد به المالك، والله هو مالك جميع الخلق، ويطلق ويراد به المصلح، والله - سبحانه وتعالى - هو الذي يصلح أحوال عباده ويتولاهم.

ولا يطلق لفظ الرب إلا على الله - سبحانه وتعالى -، أما إطلاقه على غير الله فلا بد أن يقيد بالمضاف إليه، فيقال: رب الدار، رب الإبل، أي: صاحبها ومالكها.

(١) سورة الفاتحة آية: ٢.

(٢) سورة الفاتحة آية: ٢.

(٣) سورة الفاتحة آية: ٢.

(٤) سورة الفاتحة آية: ٢.

أما إذا أطلق الرب أو رب العالمين، فإنه خاص بالله سبحانه، لا يجوز وصف غيره به.

والعالمين: جمع عالم، وهو: كل ما سوى الله سبحانه وتعالى. والعوالم في الكون كثيرة، لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، ومنها: عالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الملائكة، وعالم الجمادات، وعالم الحيوانات، كل أجناس الخلق يقال لها عوالم، وربها هو الله جل وعلا، لا أحد يخرج من ربوبيته سبحانه وتعالى.

قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣)﴾(١) عرفنا تفسيرهما في شرح البسملة.

قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾(٢) في قراءة (مالك) بالألف، وفي قراءة (ملك)، وكلا القراءتين صحيح، فهو سبحانه مالك وملك. ﴿يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾(٣): المراد بالدين هنا: الحساب

والجزاء، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩)﴾(٤) أي الحساب والجزاء.

وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١)﴾(٥) يعني: يكذب بالجزاء والحساب، والبعث والنشور.

وقال تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧)﴾(٦) أي: بالحساب والجزاء والمجازاة يوم القيامة. فيوم الدين هو يوم القيامة، سمي يوم الدين؛ لأنه يوم الجزاء والحساب.

لماذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾(٧) مع أنه مالك يوم الدين وغيره؟

---

(١) سورة الفاتحة آية: ٣.

(٢) سورة الفاتحة آية: ٤.

(٣) سورة الفاتحة آية: ٤.

(٤) سورة الانفطار آية: ٩.

(٥) سورة الماعون آية: ١.

(٦) سورة التين آية: ٧.

(٧) سورة الفاتحة آية: ٤.

خص يوم الدين بالذكر؛ لأنه لا ملك في ذلك اليوم إلا الله سبحانه وتعالى، كما قال: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ﴾(١)، فالملوك وأفراد الناس سواء في هذا اليوم، ليس لأحد ملك إلا الله جل وعلا، فلذلك خصه به في قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾(٢) وإن كان مالكا لغيره - سبحانه وتعالى - لزوال ملك غيره فيه؛ ولهذا جاء في الحديث: «إن الله سبحانه وتعالى يقول: أنا الملك، أين المتكبرون؟ أين الجبارون؟»(٣)(٤) وهذا كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾(٥).

يتساوى في هذا اليوم جميع الناس: ملوكهم وعبيدهم، فقراؤهم وأغنياؤهم وأشرافهم، لا أحد يتميز عن أحد إلا بالعمل الصالح.

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾(٦) ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾(٧) أي: نخصك بالعبادة، وقدم إياك؛ للدلالة على الاختصاص وأنه لا يستحق العبادة أحد إلا الله سبحانه وتعالى. وهذا من باب الحصر؛ لأن تقديم المعمول على العامل يفيد الحصر، أي: لا يستحق العبادة إلا أنت. ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾(٨) أي: نطلب

الإعانة. والاستعانة نوع من العبادة، فلماذا أفردها مع أنها داخلة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾(٩)؟

---

(١) سورة غافر آية: ١٦.

(٢) سورة الفاتحة آية: ٤.

(٣) البخاري التوحيد (٦٩٧٧)، مسلم صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٨)، ابن ماجه الزهد (٤٢٧٥)، أحمد (٢/٨٨).

(٤) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمر: كتاب صفات المنافقين، باب (١)، رقم (٢٧٨٨). وأصله في البخاري: كتاب التوحيد، باب (١٩) (٧٤١٢)، (٣/٤٨٠).

(٥) سورة غافر آية: ١٦.

(٦) سورة الفاتحة آية: ٥.

(٧) سورة الفاتحة آية: ٥.

(٨) سورة الفاتحة آية: ٥.

(٩) سورة الفاتحة آية: ٥.

قالوا: هذا من عطف الخاص على العام؛ وذلك لأن العبادة حق الله جل وعلا، والاستعانة حق للمخلوق؛ إذ هو الذي يستعين بالله ﷻ ويطلب منه حوائجه.

وكرر ﴿إِيَّاكَ﴾ ولم يقل: "إياك نعبد ونستعين"؛ لتأكيد الاختصاص، وأنه لا يستحق العبادة ولا يستحق الاستعانة أحد إلا الله سبحانه وتعالى، فهو المعين وحده وكل الدين يدور على العبادة والاستعانة، على هاتين اللفظتين العظيمتين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾(١).

قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾(٢) هذا دعاء وهو دعاء مسألة، والذي سبق في أول السورة، وهو قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾(٣) دعاء عبادة؛ لأن الدعاء ينقسم إلى قسمين:

دعاء عبادة، وهو: الثناء على الله، فالثناء على الله دعاء، وهو دعاء عبادة. ودعاء مسألة، ومنه قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾(٤) إلى آخر السورة.

اهدنا، الهداية هي: الدلالة والإرشاد، أي: دلنا وأرشدنا.

والهداية أربعة أقسام، لكن أهمها قسمان:

القسم الأول: هداية الدلالة والإرشاد، وهذه عامة من جهتين: من حيث الهدى فهي تحصل للمؤمن والكافر، والله قد هدى

الكافر، بمعنى أنه دله وأرشده وبين له الطريق الحق؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾(٥) أي: أرشدناهم. وهي أيضا عامة من حيث الهادي والمرشد، فيدخل فيها الرسول ومن اتبعه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾(١).

---

(١) سورة الفاتحة آية: ٥.

(٢) سورة الفاتحة آية: ٦.

(٣) سورة الفاتحة آية: ٢.

(٤) سورة الفاتحة آية: ٦.

(٥) سورة فصلت آية: ١٧.

القسم الثاني: هداية التوفيق لقبول الحق، وهذه خاصة أيضا من جهتين: لا تحصل إلا للمؤمن. وهي من خصائص الله سبحانه وتعالى، ولذا نفاها عن رسول الله ﷺ فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾(٢).

وقوله: اهدنا يعم الهدايتين: هداية الدلالة والإرشاد، وهداية التوفيق، دلنا وأرشدنا، وثبتنا ووفقنا.

الصراط هو في اللغة: الطريق والجادة، التي يمشي عليها الناس والحيوانات. والمراد بالصراط هنا: الإسلام والقرآن والرسول - ﷺ -؛ وسمي كل من هؤلاء صراطا وطريقا؛ لأنه يوصل إلى الله سبحانه وتعالى.

المستقيم معناه: الذي لا اعوجاج فيه ولا خفاء، مستقيم واضح لا يضل من سار عليه، بخلاف الطرق المعوجة المختلفة فإن من يسير عليها يضل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾(٣) فصراط الله واحد لا انقسام فيه، ولا اعوجاج ولا خفاء. أما الصراط المعوج فهذا طريق الضلال، والعياذ بالله. ولهذا لما قرأ النبي ﷺ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾(٤) خط ﷺ خطا مستقيما وخط على يمينه وشماله خطوطا كثيرة، وقال: (هذا صراط الله) للخط المعتدل، وقال عن الخطوط الأخرى: وهذه السبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»(١)(٢).

(١) سورة الشورى آية: ٥٢.

(٢) سورة القصص آية: ٥٦.

(٣) سورة الأنعام آية: ١٥٣.

(٤) سورة الأنعام آية: ١٥٣.

قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾(٣) الصراط تارة يضيفه الله لنفسه، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾(٤) وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ﴾(٥) يضيفه إلى نفسه سبحانه وتعالى؛ لأنه هو الذي شرعه، ودل عليه، ووضحه للناس، ولأنه الصراط الذي يوصل إلى الله جل وعلا، فأضافه إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم، ودلالة على أنه يوصل إلى الله سبحانه وتعالى.

وتارة يضيفه إلى أهله، كما في هذه الآية: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾(٦) إضافة إلى الذين أنعم عليهم؛ لأنهم هم الذين يسيرون عليه بخلاف أهل الضلال فإنهم يسيرون على طرق ضالة. ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾(٧): حيث هديتهم إلى سلوك هذا الصراط ووفقتهم له، وهذه أعظم نعمة من الله - سبحانه وتعالى -. ومن هم الذين أنعم الله عليهم؟ بينهم الله في قوله

تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ﴾(٨).

---

(١) البخاري الرقاق (٦٠٥٤)، الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٤)، ابن ماجه الزهد (٤٢٣١)، أحمد (١/٤٣٥)، الدارمي المقدمة (٢٠٢).

(٢) أخرجه من حديث ابن مسعود: أحمد. برقم (٤١٤٢٩، والحاكم: كتاب التفسير، رقم (٣٢٩٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وأخرجه ابن ماجه من حديث جابر. كتاب المقدمة، باب (١)، رقم (١١)، (١/١٥).

(٣) سورة الفاتحة آية: ٧.

(٤) سورة الأنعام آية: ١٥٣.

(٥) سورة الشورى آية: ٥٢، ٥٣.

(٦) سورة الفاتحة آية: ٧.

(٧) سورة الفاتحة آية: ٧.

(٨) سورة النساء آية: ٦٩.

فهذا الصراط من الذي يسير عليه؟ يسير عليه الذين أنعم الله عليهم: من النبيين، هذا الصنف هم أول من يسير عليه، والصديقين؛ لأن الصديقين هم أفضل الخلق بعد الأنبياء،

والشهداء في سبيل الله بعد مرتبة الصديقين والصالحين وهم سائر المؤمنين.

فالذين يسيرون على هذا الصراط المستقيم طبقات: أول طبقة هم الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، ثم يليهم الصديقون، ثم يليهم الشهداء، ثم يليهم الصالحون من كل أمة.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم نسير على هذا الطريق المستقيم في مرافقة هؤلاء ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩)﴾[1] والإنسان في هذه الدنيا - وهو يسير على الطريق المستقيم - يجد مضايقات وشدائد وأذى، ويحس بغربة بين الناس، وربما نالوا منه بالضرب والتهكم، والتهديد والتنقص.

فإذا تذكر أن رفقاءه هؤلاء الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فإنه يطمئن ويصبر على ما يناله في سلوك هذا الصراط.

والسير على هذا الصراط محفوف بالمكاره، محفوف بالشدائد والمشاق، ليس مفروشا بالورود، فلذا كان لا بد لسلوكه من صبر طويل، وعزم أكيد، ومما يعينك على سلوكه ويهون عليك شدائده تذكرك أنك ترافق هؤلاء، لكن هذا يحتاج إلى إيمان،

وقل من يوفق لذلك ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥)﴾(٢) فالذين أنعم الله عليهم هم: أهل العلم النافع والعمل الصالح، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾(٣) من هم المغضوب عليهم؟ هم الذين علموا ولم يعملوا، تعلموا العلم النافع وفقهوا ولكنهم لم يعملوا بعلمهم، فهؤلاء مغضوب عليهم؛ لأنهم عصوا الله على بصيرة. وهذا يشمل كل من لا يعمل بعلمه فإنهم مغضوب عليهم، وفي مقدمة هؤلاء اليهود؛ لأن اليهود عندهم علم، وقد سماهم الله أهل الكتاب وأهل العلم، ولكنهم لما لم يعملوا بعلمهم غضب الله عليهم، وليس هذا خاصا بهم، بل هو عام لكل من سلك طريقهم ممن تعلم العلم ولم يعمل به. ﴿وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾(١) الضالون هم: الذين يعملون بدون علم؛ لأنهم ليسوا على هدى مثلهم مثل من يمشي وهو لا يعرف الطريق. أليس الذي يمشي في البر وهو لا يعرف الطريق يقال له في اللغة: ضال؟ وأنه على خطر من الهلاك؟ فالذي يعمل بدون علم ضال في الشرع، والعياذ بالله.

(١) سورة النساء آية: ٦٩.

(٢) سورة فصلت آية: ٣٥.

(٣) سورة الفاتحة آية: ٧.

وإن كان يعمل ويتعب نفسه ويتقرب إلى الله ويبكي ويصيح، يريد الجنة، لكنه لما كان يسير على غير طريق صحيح لم ينفعه ذلك، ويدخل في الضالين: النصارى؛ لعملهم بدون علم ويدخل فيها الخرافيون والمبتدعة؛ لأنهم يعملون بدون علم.

فالمصلي والقارئ لسورة الفاتحة يسأل الله أن يجنبه طريق هذين الصنفين: الذين معهم علم ولا يعملون به، والذين معهم عمل ولكن بدون علم.

وتوجد الآن بعض الجماعات تزهد في العلم وتعلمه، يقولون للناس اشتغلوا بالعبادة والذكر، واخرجوا في سبيل الله، ويعنون بسبيل الله: الخروج والسفر والتجول في البلدان، ويزهدون في طلب العلم ويهونون من شأنه وشأن أهله! وهذا الطريق ضلال، والعياذ بالله. فلا بد من العلم أولا؛ لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾(٢) فبدأ بالعلم قبل القول والعمل.

وقد دلت الآيات السابقة على أن الناس بالنسبة إلى العلم والعمل ثلاثة أصناف:

فالذين جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح هم الذين أنعم الله عليهم. الذين تسأل الله - في هذه السورة - أن يهديك صراطهم.

---

(١) سورة الفاتحة آية: ٧.

(٢) سورة محمد آية: ١٩.

والذين أخذوا العلم وتركوا العمل، هم المغضوب عليهم من أي ملة ومن أي دين.

والذين أخذوا العمل وتركوا العلم هم الضالون، وكلا الفريقين خاسر. نسأل الله العافية.

فإذا تأملت هذه السورة أدركت السر في عظمتها، وأن الله ما جعلها تقرأ في كل ركعة من ركعات الصلاة إلا لمكانتها وعظمتها بين سائر السور.

ومن ذلك ما تشتمل عليه هذه السورة من هذا الدعاء العظيم: دعاء العبادة في أولها، ودعاء المسألة في آخرها، فهي كلها

دعاء، ولهذا يستحب في الصلاة إذا فرغ المصلي من قراءتها أن يقول: آمين (الإمام والمأموم والمنفرد يستحب لهم ذلك).

وآمين معناه: اللهم استجب، أي استجب هذا الدعاء، فهو تأمين على دعاء هذه السورة.

وآمين ليست واجبة في الصلاة ويستحب أن يجهر بآمين، في الصلاة الجهرية سواء كان إماما أم مأموما أم منفردا.

أما إذا كان يقرأ سرا فإنه يسر بها.

٧- مما جاء في فضلها

ومن عظمة هذه السورة ما جاء في الحديث القدسي - وهو في الصحيح - أن الله - جل وعلا - يقول: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل»(١) والمراد بالصلاة هنا الفاتحة، سميت صلاة لأنها تقرأ في الصلاة. ولأن الصلاة في اللغة: الدعاء، وسورة الفاتحة دعاء.

قوله: "بيني وبين عبدي نصفين"، فهي سبع آيات: ثلاث آيات ونصف لله - جل وعلا -. وثلاث آيات ونصف للعبد، «فإذا قال

العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ﴾ ﴿الْعَالَمِينَ (٢)﴾(١)، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣)﴾(٢)، قال الله سبحانه: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾(٣)، قال الله تعالى: مجدني عبدي، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾(٤) قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل»(٥).

---

(١) مسلم الصلاة (٣٩٥)، الترمذي تفسير القرآن (٢٩٥٣)، أحمد (٢/٢٨٦)، مالك النداء للصلاة (١٨٩).

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾(٦) هذا لله، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾(٧) هذا للعبد. فمن قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾(٨) إلى آخر السورة هذا للعبد؛ لأن العبد يدعو به ربه. ومن قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾(٩) إلى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾(١٠) هذا لله سبحانه وتعالى؛ لأنه كله ثناء على الله جل وعلا. فهذا يدل على عظمة هذه السورة، ولهذا قال: «فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)﴾(١١) قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»(١٢).

٨- الفوائد المستنبطة منها

ومما يتعلق بهذه السورة ويدل على عظمتها ما قاله العلماء - رحمهم الله -: إن هذه السورة تشتمل على معان جليلة، منها:

(١) سورة الفاتحة آية: ٢.

(٢) سورة الفاتحة آية: ٣.

(٣) سورة الفاتحة آية: ٤.

(٤) سورة الفاتحة آية: ٥.

(٥) مسلم الصلاة (٣٩٥)، الترمذي تفسير القرآن (٢٩٥٣)، أحمد (٢/٢٨٦)، مالك النداء للصلاة (١٨٩).

(٦) سورة الفاتحة آية: ٥.

(٧) سورة الفاتحة آية: ٥.

(٨) سورة الفاتحة آية: ٥.

(٩) سورة الفاتحة آية: ٢.

(١٠) سورة الفاتحة آية: ٥.

(١١) سورة الفاتحة الآيتان: ٦، ٧.

(١٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة: كتاب الصلاة، باب (١٠)، رقم (٣٩٥)، (٢/٣٢٤).

أولا - فيها إثبات التوحيد بأنواعه الثلاثة: فقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾(١) هذا في توحيد الربوبية. وقوله: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾(٢) هذا في توحيد الأسماء والصفات. وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾(٣) هذا في توحيد الألوهية. ففيها أقسام التوحيد الثلاثة.

ثانيا: - فيها إثبات الرسالة؛ لأن قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾(٤) فيه إثبات ربوبيته لجميع خلقه.

ومقتضى ربوبيته أن لا يترك عباده بدون ما يصلحهم، ومن أعظم ما يصلح العباد إرسال الرسل. كذلك قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾(٥) فإن الصراط المستقيم لا يتبين إلا بإرسال الرسل - عليهم الصلاة والسلام -. ففيها إثبات الرسالات.

ثالثا: فيها الرد على الطوائف الضالة.

ففيها الرد على الملاحدة والمعطلة الذين لا يؤمنون برب؛ فإن قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾(٦) رد على الملاحدة الذين يرون أن العالم ليس له رب، وإنما هو الذي يكون نفسه! والطبيعة هي التي تكون هذه الأشياء وتوجدها!! وهذا مخالف للعقول؛ لأنه لا يمكن وجود مخلوق بدون خالق، ولا يمكن حصول فعل بدون

فاعل أبدا. فهذا الكون كله وهذا الخلق يدل على الخالق - سبحانه وتعالى -، وأنه هو الذي أوجده وصرفه ودبره وكونه.

---

(١) سورة الفاتحة آية: ٢.

(٢) سورة الفاتحة الآيتان: ٣، ٤.

(٣) سورة الفاتحة آية: ٥.

(٤) سورة الفاتحة آية: ٢.

(٥) سورة الفاتحة آية: ٦.

(٦) سورة الفاتحة آية: ٢.

وفيها رد على المشركين الذين يؤمنون بالرب لكن يشركون معه في العبادة، وذلك في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)﴾(١)، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)﴾(٢)، وقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾(٣) هذا كله فيه رد على المشركين الذين يعبدون الله ويعبدون معه غيره.

وفيها رد على الجهمية والمعتزلة ومنكري الصفات.

وفيها الرد على منكري البعث، وذلك في قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤)﴾(٤)، والدين هنا هو الجزاء والحساب، ففيها إثبات البعث.

وفيها الرد على اليهود والنصارى ومن سار على طريقهم ممن أخذ العلم وترك العمل، أو أخذ العمل وترك العلم، ففيها رد على كل عالم لا يعمل بعلمه، ورد على كل عامل لا يعمل على علم، ولهذا يقول العلماء: إن هذه السورة تضمنت الرد على جميع الطوائف، فحق لها أن تسمى أم الكتاب؛ لأن أم الشيء هي التي يرجع إليها الشيء، والقرآن كله يرجع إلى هذه السورة؛ لأن القرآن كله يدور على هذه المعاني التي تضمنتها هذه السورة.

وهذه السورة العظيمة كثير من الناس يقرؤها ويرددها على لسانه، ولا يتدبرها ولا يفقه شيئا من معانيها، وإنما هي ألفاظ تجري على لسانه كأنه كلام أعجمي!! وهذا من الخطأ الجسيم والخلل الكبير، والقرآن إنما أنزل ليتدبر وتفهم معانيه. هذا والله أعلم.

---

(١) سورة الفاتحة آية: ٢.

(٢) سورة الفاتحة آية: ٥.

(٣) سورة الفاتحة آية: ٦.

(٤) سورة الفاتحة آية: ٤.

الدرس الثالث

تفسير الآيات العشرين الأول من سورة البقرة

١- تمهيد

هذه السورة الثانية في المصحف، تسمى سورة البقرة؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - ذكر فيها قصة البقرة التي أمر بنو إسرائيل بذبحها لمعرفة قاتل القتيل الذي اشتبهوا في قاتله.

وهذه سورة عظيمة تضمنت علوما غزيرة في العقيدة والأحكام وقصص الأمم السابقة وغير ذلك. وقد حث النبي ﷺ على تعلمها، فقال: «تعلموا سورة البقرة؛ فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة»(١)(٢) أي: الشياطين لا يستطيعون البقاء في المكان الذي تقرأ فيه هذه السورة؛ كما جاء في الحديث: «إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة»(٣)(٤).

ومعنى تعلمها وأخذها: تعلم قراءتها على الوجه الصحيح ومعرفة معانيها وتفسيرها، وليس المراد مجرد القراءة، أو تعلم القراءة فقط، إنما المراد تعلم قراءتها وتعلم معانيها حتى يعمل بها، ولهذا يقول أحد الصحابة: (كنا لا نتجاوز عشر آيات حتى نتعلم معانيها والعمل بها، قال: فتعلمنا العلم والعمل جميعا)(٥) هذا هو المقصود من تعلم البقرة وغيرها من القرآن، تعلم القراءة على الوجه الصحيح، وتعلم المعاني والتفسير، بقصد العمل والامتثال.

---

(١) أحمد (٥/٣٤٨)، الدارمي فضائل القرآن (٣٣٩١).

(٢) أخرجه أحمد من حديث بريدة: برقم (٢٣٣٣٨) (٧/٦١٨).

(٣) مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٧٨٠)، الترمذي فضائل القرآن (٢٨٧٧).

(٤) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة: كتاب صلاة المسافرين، باب (٢٩) رقم (٧٨٠) (٣/٣١٠).

(٥) كما حكاه عن جماعة منهم: أبو عبد الرحمن السلمي. أخرجه عنه ابن جرير الطبري في تفسيره (١/٨٠).

قوله تعالى: ﴿الم﴾: افتتح الله هذه السورة بقوله: ﴿الم﴾، وهي من الحروف المقطعة، افتتح الله بها كثيرا من السور، ومن هذه

الحروف:

﴿المص (١)﴾(١)، ﴿المر ۚ﴾(٢)، ﴿حم﴾، ﴿كهيعص (١)﴾(٣)، ﴿طه (١)﴾(٤)، ﴿يس (١)﴾(٥)، ﴿ق ۚ﴾(٦)، ﴿ص ۚ﴾(٧)، ﴿حم﴾، ﴿عسق (٢)﴾(٨).

وقد اختلف العلماء فيها على أقوال، نكتفي منها بقولين:

القول الأول: ذهب الجمهور إلى أنها تمر كما جاءت؛ لأنها مما استأثر الله - تعالى - بعلمه فلا يبحث عنها؛ لأنه لا دليل على البحث فيها وتعيين المراد منها.

القول الثاني: إن هذه الحروف إشارة إلى إعجاز القرآن، وأن الله - سبحانه وتعالى - أنزل هذا القرآن مكونا من هذه الحروف التي ينطق بها العرب ويتخاطبون بها، ومع هذا لم يستطيعوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو مثل سورة أو آية منه، فهذا إشارة إلى الإعجاز؛ ولهذا - في الغالب - إذا جاءت هذه الحروف يأتي بعدها ذكر القرآن، كما في هذه السورة: ﴿الم (١) ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢)﴾(٩)، وقوله في أول الأعراف: ﴿المص (١) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾(١٠) وقوله: ﴿ق ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١)﴾(١)، وقوله: ﴿ص ۚ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١)﴾(٢)، وقوله: ﴿الم (١) تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾(٣) إلى غير ذلك.

وهذا يدل على الإعجاز، وهو أن القرآن مركب من مثل هذه الحروف، ومع هذا عجزتم عن الإتيان بمثله أو بمثل سورة منه. وهذا القول وجيه، ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره.

---

(١) سورة الأعراف آية: ١.

(٢) سورة الرعد آية: ١.

(٣) سورة مريم آية: ١.

(٤) سورة طه آية: ١.

(٥) سورة يس آية: ١.

(٦) سورة ق آية: ١.

(٧) سورة ص آية: ١.

(٨) سورة الشورى آية: ٢.

(٩) سورة البقرة الآيتان: ١، ٢.

(١٠) سورة الأعراف الآيتان: ١، ٢.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾(٤) ذا اسم إشارة، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب. أشار إلى الكتاب الذي هو القرآن إشارة تعظيم وإجلال، أي الذي لا يشبهه غيره، فهو أعظم كتاب نزل من الله سبحانه وتعالى.

ثم قال: ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾(٥): نفى عنه الريب، والريب: الشك، فلا يتطرق إليه شك، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾(٦)

وقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢)﴾(٧) هذه صفة ثانية للقرآن، والهدى معناه: الدلالة والإرشاد إلى الطريق الصواب، فالقرآن فيه دلالة وإرشاد إلى طريق الحق وطريق الجنة. والهدى - كما ذكرنا - ينقسم إلى قسمين: هدى دلالة وإرشاد، وهدى توفيق وإلهام، أو هداية القلوب، فهذا القرآن هدى للمتقين.

والمتقون: جمع متق، وهو: من اتصف بالتقوى، والتقوى: أن تجعل بينك وبين غضب الله وعذابه وقاية تقيك منه، وذلك بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وعرف العلماء التقوى بأنها: أن تفعل ما أمرك الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى الله عنه على نور من الله تخاف من عقاب الله. هذه هي التقوى، وحاصلها: أن تجعل بينك وبين المكروه وقاية، بحيث لا يصل إليك، فإن لم تحصل لك هذه الوقاية فإنك لا شك متوعد بالعذاب.

(١) سورة ق آية: ١.

(٢) سورة ص آية: ١.

(٣) سورة السجدة الآيتان: ١، ٢.

(٤) سورة البقرة آية: ٢.

(٥) سورة البقرة آية: ٢.

(٦) سورة النساء آية: ٨٢.

(٧) سورة البقرة آية: ٢.

لماذا خص المتقين بالذكر مع أنه هداية لجميع الناس؟ كما قال في أثناء هذه السورة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾(١) أي: لجميع الناس، بمعنى: أنه دل الناس على الخير، فمن أراد الخير وجده، ومن أعرض قامت عليه الحجة؛ لأن الله هدى جميع الناس، بمعنى أنه بين لهم ودلهم وأرشدهم، فمنهم من انتفع، ومنهم من لم ينتفع.

والجواب: أنه إنما خص المتقين؛ لأنهم هم الذين انتفعوا به واهتدوا به. وأما غيرهم فإنما قامت عليهم الحجة وانقطعت معذرتهم، حيث لم يبق لهم عذر عند الله سبحانه وتعالى.

٢- أقسام الناس أمام هداية القرآن

ثم لما ذكر أن هذا القرآن هدى، قسم الناس أمام هداية القرآن إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذين آمنوا به ظاهرا وباطنا وامتثلوا أحكامه أمرا ونهيا.

القسم الثاني: الذين كفروا به ظاهرا وباطنا.

القسم الثالث: الذين آمنوا به ظاهرا وكفروا به باطنا.

القسم الأول: هم المتقون، وذكر الله فيهم ثلاث آيات هي: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾(٢)

هذه ثلاث آيات، تتضمن خمس صفات لهؤلاء:

---

(١) سورة البقرة آية: ١٨٥.

(٢) سورة البقرة الآيات: ٣-٥.

الصفة الأولى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾(١) أي: يصدقون بما أخبر الله أو أخبر رسوله عنه من الغيوب التي لم يروها، وإنما صدقوا بها اعتمادا على خبر الله وخبر رسوله ﷺ.

والغيب: كل ما غاب عن الناس ولم يشاهد من الأمور الماضية، والأمور المستقبلة، ومن العوالم الأخرى التي لم يروها وإنما أخبر الله عنها. وأول الإيمان بالغيب: الإيمان بالله - سبحانه وتعالى - وبأسمائه وصفاته؛ ذلك لأن المؤمنين لم يروا ربهم في هذه الدنيا، وإنما آمنوا به وعرفوه بآياته الكونية، وهي مخلوقاته التي تشاهد في هذا الكون دالة على وجوده وعظمته، وبآياته القرآنية المتلوة في كتابه المنزل، وقبل ذلك عرفوه بالفطرة السليمة التي فطر الناس عليها، والله - تعالى - هو الدليل على كل شيء، ولا يحتاج إلى دليل على إثباته، إلا من فسدت فطرته واجتالته الشياطين.

ومن الإيمان بالغيب: الإيمان بالملائكة، وهم من المخلوقات التي يؤمن بها العبد ولم يشاهدها.

وكذلك الإيمان بالجن (العالم الثاني مع الإنس) فيؤمن بهم العبد وإن لم يرهم؛ لأن الله أخبر عنهم وأخبر عنهم رسوله ﷺ.

وكذلك الإيمان بالغيوب الماضية، مثل أخبار الأمم السابقة، فالمؤمنون بذلك ما شاهدوا آدم ونوحا وإبراهيم والأنبياء وأقوامهم كعاد وثمود، لكن الله أخبر عنهم، وأخبر عنهم رسوله ﷺ وهم يؤمنون بذلك.

وكذلك الغيوب المستقبلية في آخر الزمان مما يكون قبل الساعة من الأشراط والعلامات وعذاب القبر ونعيمه، وما في الآخرة من البعث والحساب والصراط والميزان والحوض والجنة والنار والحشر، فيؤمنون به ويصدقون؛ لأن الله - جل وعلا - أخبر به وأخبرت به الرسل - عليهم الصلاة والسلام -.

---

(١) سورة البقرة آية: ٣.

فهم يؤمنون بالغيب سواء أدركته عقولهم أم لم تدركه، والإيمان بالغيب مبني على التسليم لله؛ لأن الغيوب لا يتوصل إليها بالعقل وإنما طريقها الإخبار. أما الذي لا يؤمن إلا بما يوافق عقله، وما يخالف عقله رفضه، فهذا ليس بمؤمن؛ قال تعالى عن هؤلاء: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)﴾(١) وأعظم منه ظلما وكفرا الذي لا يؤمن بالغيب أصلا ولا يصدق إلا

بما يرى من المحسوسات، فهذا ملحد معطل كافر بالله ورسوله ﷺ.

والذي لا يؤمن بالغيب لأن عقله لم يدركه هذا غير مؤمن ولم يسلم لله - تعالى - ولرسوله، والعقل له طاقة محدودة، وهناك أمور لا يدركها ولا يطيقها، وإنما يدرك بقدر طاقته فقط.

الصفة الثانية: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾(٢): الصلاة التي هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وقال: ويقيمون: ولم يقل: ويصلون؛ لأنه ليس المقصود من الصلاة صورتها، وإنما المقصود إقامتها.

ومعنى إقامتها: الإتيان بها كما شرع الله - سبحانه وتعالى - بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، وهذه إقامة ظاهرة، ولا بد مع ذلك من إقامتها باطنا، وذلك بالخشوع فيها وحضور القلب.

فإقامة الصلاة نوعان:

١- إقامة ظاهرة: وذلك بالإتيان بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها.

٢- وإقامة باطنة: وهي حضور القلب وخضوعه فيها، فإن من صلى بدون خشوع ولا حضور قلب فإنه لا يكتب له من الأجر

إلا بمقدار ما عقل من صلاته وخشع فيه، ولو أقامها ظاهرا بشروطها وأركانها، فإن المعول عليه الإقامتان معا.

---

(١) سورة يونس آية: ٣٩.

(٢) سورة البقرة آية: ٣.

الصفة الثالثة: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣)﴾(١) والقرآن - غالبا - يذكر الإنفاق والصدقة مع الصلاة؛ لأن الصلاة إحسان فيما بين العبد وبين ربه، والإنفاق إحسان فيما بين العبد وبين الناس. فهم يحسنون فيما بينهم وبين الله بإقام الصلاة، ويحسنون فيما بينهم وبين الخلق بالإنفاق.

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾(٢) "من": تبعيضية، أي: بعض ما رزقناهم؛ لأنه ليس المطلوب أن تنفق كل مالك؛ بل المطلوب أنك تنفق بعض مالك، ولهذا عبر بمن التبعيضية.

و "ما": موصولة بمعنى الذي، وقوله: رزقناهم: فيه إشارة إلى منة الله عليهم، وأن المال لم يحصل لهم بحولهم وقوتهم ومعرفتهم، وإنما رزقهم الله إياه، فالفضل فيه لله سبحانه وتعالى.

ينفقون: الإنفاق في اللغة: الإخراج، سمي التصدق إنفاقا؛ لأن الإنسان يخرجه من ماله، يقال: نفقت الدابة إذا ماتت وخرجت روحها، وسميت النفقة نفقة لأنها تخرج من المال، ومنه النفاق وهو الخروج من الإيمان. فمعنى ينفقون: يخرجون من أموالهم الصدقة الواجبة كالزكاة والكفارات، والنفقة على الزوجة والأولاد والأقارب. ويخرجون أيضا الصدقة المستحبة، صدقة التطوع، كالصدقة على المحتاجين وفي سبيل الله سبحانه وتعالى.

وقال: ينفقون: ولم يذكر المنفق عليه؛ ليعم كل وجوه الإنفاق التي أمر الله - جل وعلا - بالإنفاق فيها.

الصفة الرابعة: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾(٣): هذا في الذين آمنوا بالرسول ﷺ من أهل الكتاب؛ حيث آمنوا بالكتابين، هؤلاء يعطيهم الله أجرهم مرتين؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۚ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧)﴾(١) وقال تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ

أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾(٢) يؤتيهم الله أجرهم مرتين: أجرا على الإيمان السابق، وأجرا على الإيمان اللاحق. وقال - تعالى - في آية أخرى يخاطب هؤلاء المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨)﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة آية: ٣.

(٢) سورة البقرة آية: ٣.

(٣) سورة البقرة آية: ٤.

فقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾(٤) يعني: القرآن. ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾(٥) أي: من الكتب السابقة. فالذين أدركوا النبي ﷺ وآمنوا به كالنجاشي وعبد الله بن سلام وغيرهم من الذين آمنوا بالرسل السابقين، ثم آمنوا بمحمد ﷺ.

الصفة الخامسة: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤)﴾(٦): الآخرة: يوم القيامة، سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا. والدنيا سميت بذلك لأنها اليوم الأدنى. وهذا الوصف داخل في الإيمان بالغيب المتقدم في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾(٧)، وإنما أعاد ذكره اهتماما

وتأكيدا للإيمان به، ولأن من آمن باليوم الآخر استعد له بالعمل الصالح والتوبة من الأعمال السيئة.

والإيمان باليوم الآخر هو أحد أركان الإيمان الستة.

---

(١) سورة العنكبوت آية: ٤٧.

(٢) سورة القصص الآيتان: ٥٣، ٥٤.

(٣) سورة الحديد آية: ٢٨.

(٤) سورة البقرة آية: ٤.

(٥) سورة البقرة آية: ٤.

(٦) سورة البقرة آية: ٤.

(٧) سورة البقرة آية: ٣.

هذه خمسة أوصاف للصنف الأول: الذين آمنوا بالقرآن ظاهرا وباطنا.

ثم بين - سبحانه وتعالى - جزاءهم فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ﴾(١)، هذا في الدنيا، أي: يسيرون على طريق صحيح واضح لا اعوجاج فيه. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾(٢)، يعني: في الآخرة بالجنة. والفلاح هو: الفوز والحصول على الأجر

العظيم. وحصر الفلاح فيهم بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)﴾ (٣)، وأما غيرهم فلا فلاح ولا صلاح لهم. هذا القسم الأول.

القسم الثاني: الذين كفروا بالقرآن ظاهرا وباطنا، وفيهم آيتان تبدآن بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(٤)، الكفر: عدم الإيمان، والامتناع من الدخول فيه، وهو في الأصل من الكفر وهو الستر، يقال: كفر الشيء إذا ستره، وتكفير السيئات سترها وتغطيتها، ومحوها وإزالتها، وسمي الزارع كافرا؛ لأنه يغطي البذور بالدفن في الأرض، ومنه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾(٥) أي: الزراع.

والذين لم يدخلوا في الإيمان ولم يجيبوا داعي الله، إنما سموا كفارا؛ لأنهم ستروا الحق وأخفوه ولم يقبلوه. ولأن كثيرا منهم كما قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(٦)، وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾(٧).

(١) سورة البقرة آية: ٥.

(٢) سورة البقرة آية: ٥.

(٣) سورة البقرة آية: ٥.

(٤) سورة البقرة آية: ٦.

(٥) سورة الحديد آية: ٢٠.

(٦) سورة النمل آية: ١٤.

(٧) سورة الأنعام آية: ٣٣.

والكفر يكون بالتعطيل وإنكار الخالق - جل وعلا -، ويكون بالشرك مع الله - سبحانه وتعالى -، ويكون بارتكاب ناقض من نواقض الإسلام، وهي كثيرة. فالكفر يكون بالجحود، ويكون بالعناد، ويكون بالاستكبار، ويكون بالنفاق، ويكون بالقول وبالفعل وبالاعتقاد وبالشك. والكفر: أنواع يجمعها "عدم الإيمان".

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(١) أي: أبوا أن يقبلوا هدى الله - سبحانه وتعالى -، هؤلاء لا حيلة فيهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)﴾(٢) لأنهم لما عرفوا الحق أول مرة

ولم يستجيبوا عاقبهم الله بحرمانهم من الإيمان فلا يهتدون بعد ذلك أبدا.

قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ﴾(٣) وختم الشيء معناه: إغلاقه بحيث لا يدخل إليه شيء ولا يخرج منه شيء، و ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾(٤) أي: أغلقها بالخاتم، أو بالختم، فلا ينفذ إليها النور، ولا يصل إليها الإيمان؛ بسبب إعراضهم، كما قال سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(٥) فمن تبين له الحق وأعرض عنه، عوقب بالحرمان فلا يقبله بعد ذلك.

وما دام الله ختم على قلوبهم وسد المنافذ التي توصل الخير إليها فلا فائدة من دعوتهم؛ بل ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠)﴾(٦).

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ﴾(٧) أي: وختم على سمعهم، فلا يسمعون سماع قبول واهتداء وإن كانوا يسمعون الصوت بآذانهم، لكن لا يسمعون سماع قبول وانتفاع، حرمهم الله فائدة الأسماع - والعياذ بالله - كما قال سبحانه: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا

كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)﴾(١).

---

(١) سورة البقرة آية: ٦.

(٢) سورة البقرة آية: ٦.

(٣) سورة البقرة آية: ٧.

(٤) سورة البقرة آية: ٧.

(٥) سورة الأنعام آية: ١١٠.

(٦) سورة يس آية: ١٠.

(٧) سورة البقرة آية: ٧.

قوله: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾(٢) على أبصارهم خبر مقدم، و غشاوة مبتدأ مؤخر، وهي جملة مستأنفة. والغشاوة: الغطاء، أي: جعل على أبصارهم غطاء يحول بينهم وبين الانتفاع بما يشاهدون من آيات الله، فلا يبصرون إبصار انتفاع: لا ينظرون في آيات الله ويستفيدون من النظر فيها، وإنما نظرهم كنظر البهائم تنظر إلى الأشياء ولكن لا تدرك الحكمة منها والسر فيها. فحرمهم الله نعمة القلوب، ونعمة الأسماع، ونعمة الأبصار، والسبب هو: أنهم كفروا ولم يقبلوا الحق.

وفي هذا تحذير عن الإعراض عن الحق لكل من سمعه؛ لأن ذلك الإعراض سبب لحرمانه من الهداية، فيظل مغلق القلب مختوما عليه كما حرم هؤلاء وختم على قلوبهم.

ثم قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)﴾(٣): هذا جزاؤهم في الآخرة، عذاب لا يعلم عظمه إلا الله سبحانه وتعالى. هذا القسم الثاني عاقبهم الله في الدنيا عقوبة عاجلة بحرمانهم من الانتفاع بحواسهم، وعقوبة آجلة في الآخرة بالعذاب العظيم في النار.

القسم الثالث: الذين آمنوا بالقرآن ظاهرا، وكفروا به باطنا. وهؤلاء هم المنافقون، وهم شر ممن قبلهم، شر من الكفار وأخطر؛ لأن الكفار يعلم أنهم كفار فيؤخذ الحذر منهم، لكن هؤلاء لا يعلم المسلمون أنهم كفار؛ لسلامة ظاهرهم، واختلاطهم بالمسلمين فيحسنون الظن بهم ولا يحذرونهم، وهم يفسدون في الأرض. فخطرهم أشد من خطر الكفار، ولهذا أنزل الله فيهم ثلاث عشرة آية، من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ﴾(٤) إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ﴾ ﴿شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)﴾(١)؛ وذلك لخطرهم وقبحهم، وأنهم أقبح من الكفار الأصليين، ولهذا قال -

جل وعلا -: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)﴾(٢) ﴿الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ﴾(٣)، أي: تحت الكفار وعبدة الأصنام. والعياذ بالله.

---

(١) سورة البقرة آية: ١٧١.

(٢) سورة البقرة آية: ٧.

(٣) سورة البقرة آية: ٧.

(٤) سورة البقرة آية: ٨.

والنفاق هو: إظهار الخير كالإيمان والصلاح وإخفاء الشر كالكفر والرياء في القلب.

وهو ينقسم إلى قسمين: نفاق اعتقادي، ونفاق عملي.

أ - النفاق الاعتقادي هو: إظهار الإيمان وإبطان الكفر. والمتصف بهذا هو الذي يكون في الدرك الأسفل من النار. والعياذ بالله.

ب - أما النفاق العملي فهو؛ الاتصاف بصفة من صفات المنافقين، وهذا يكون من بعض المؤمنين، فالمتصف به مؤمن باطنا وظاهرا، وهذا يسمى نفاقا أصغر، ونفاقا عمليا. من ذلك قوله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف،

وإذا اؤتمن خان»(٤)(٥) وفي رواية: «وإذا خاصم فجر»(٦)، وفي رواية: «وإذا عاهد غدر»(٧)(٨) فهذه الصفات إذا صدرت من مؤمن فإنه يكون عنده نفاق عملي ينقص إيمانه، وقد يجره - والعياذ بالله - إلى النفاق الاعتقادي. ولهذا خافه النبي ﷺ على أصحابه وكان الصحابة يخافون خوفا شديدا من هذا النفاق؛ لأن الواجب على المؤمن الصراحة في الحق؛ لأنها إذا اجتمعت فيه دلت على تأصل النفاق العملي فيه الموجب للنفاق الاعتقادي، ولهذا قال ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا . . .»(١) فلا يكون عنده ظاهر وباطن يخالفه ولا يتصف بصفات المنافقين: بالكذب، وإخلاف الوعد، وخيانة الأمانة، والغدر بالعهود.

(١) سورة البقرة آية: ٢٠.

(٢) سورة النساء آية: ١٤٥.

(٣) سورة النساء آية: ١٤٥.

(٤) البخاري الإيمان (٣٣)، مسلم الإيمان (٥٩)، الترمذي الإيمان (٢٦٣١)، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٢١)، أحمد (٢/٣٥٧).

(٥) متفق عليه من حديث أبي هريرة

(٦) البخاري الإيمان (٣٤)، مسلم الإيمان (٥٨)، الترمذي الإيمان (٢٦٣٢)، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٢٠)، أبو داود السنة (٤٦٨٨)، أحمد (٢/١٨٩).

(٧) البخاري الإيمان (٣٤)، مسلم الإيمان (٥٨)، الترمذي الإيمان (٢٦٣٢)، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٢٠)، أبو داود السنة (٤٦٨٨)، أحمد (٢/١٨٩).

(٨) هاتان جملتان من حديث أبي هريرة المتفق عليه: (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ...) الحديث سيأتي تخريجه.

وقد قال ﷺ محذرا من صفات النفاق: «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كان فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»(٢)(٣) نسأل الله العافية. فالواجب على المسلم أن يحذر من النفاق، وأن يتجنب صفات المنافقين، ولا يقل: أنا مؤمن على الإطلاق؛ فالمؤمن قد يدخل عليه شيء من

صفات المنافقين لنقص إيمانه، ولكن ليقل أنا مؤمن إن شاء الله. ونحوها.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾(٤) أي: بأفواههم، قال - تعالى -: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨)﴾(٥) يعني: في قلوبهم، إنما أظهروا الإيمان وأخفوا ضده وهو الكفر، ومن لم يؤمن بقلبه فليس بمؤمن.

٣- متى وقع النفاق في الإسلام

يقول العلماء: إن النفاق العقدي لم يقع في مكة؛ لأن المسلمين كانوا مستضعفين في مكة، فلا يسلم في مكة إلا صادق الإيمان؛ لأنه بإسلامه معرض للفتن والاضطهاد. فليس ثم حاجة لأن ينافق. وكذلك في أول الهجرة ما حصل نفاق، لكن لما جاءت واقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة، وانتصر المسلمون فيها، وقويت شوكتهم، رأى الكفار الذي يعيشون في المدينة أن استمرارهم على كفرهم يعرضهم للخطر، فلم يسعهم إلا أن يقبلوا الإسلام ظاهرا لأجل أن يعيشوا مع الناس، وتحقن

دماؤهم، وما آمنوا بقلوبهم، ولكن أظهروا الإيمان حيلة وحفظا لمصالحهم.

---

(١) البخاري الإيمان (٣٤)، مسلم الإيمان (٥٨)، الترمذي الإيمان (٢٦٣٢)، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٢٠)، أبو داود السنة (٤٦٨٨)، أحمد (٢/١٨٩).

(٢) البخاري الإيمان (٣٤)، مسلم الإيمان (٥٨)، الترمذي الإيمان (٢٦٣٢)، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٢٠)، أبو داود السنة (٤٦٨٨)، أحمد (٢/١٨٩).

(٣) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو: البخاري: كتاب الإيمان باب (٢٤)، (١/١٢١). ومسلم: كتاب الإيمان باب (٢٥)، رقم (٥٨) (١/٢٣٤).

(٤) سورة البقرة آية: ٨.

(٥) سورة البقرة آية: ٨.

قوله - تعالى -: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾(١) الخداع، والمخادعة: أن يظهر الإنسان خلاف ما يبطن. وقصد المنافقين من مسلكهم هذا المخادعة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾(٢)، والله جل وعلا لا يخدع.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾(٣) أي: ويخادعون الذين آمنوا.

قوله: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾(٤): أي: عملهم هذا إنما ضرره على أنفسهم؛ لأن الواجب على الإنسان أن

ينصح لنفسه، وأن ينقذها من عذاب الله. لكن المنافقين خدعوا أنفسهم؛ حيث عرضوها لغضب الله سبحانه وتعالى.

قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)﴾(٥)، أي: وما يدرون أن عملهم هذا سينتكس عليهم.

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم﴾(٦) هذا هو سبب النفاق: المرض الذي في قلوبهم. والقلب يمرض، ومرضه أشد من مرض الجسم، وذكر العلماء أن مرض القلب نوعان: مرض شهوة، ومرض شبهة.

---

(١) سورة البقرة آية: ٩.

(٢) سورة النساء آية: ١٤٢.

(٣) سورة البقرة آية: ٩.

(٤) سورة البقرة آية: ٩.

(٥) سورة البقرة آية: ٩.

(٦) سورة البقرة آية: ١٠.

١- مرض الشبهة: يكون بالشكوك والكفر والنفاق وسوء الظن بالله وسوء الظن بالمسلمين.

٢- مرض الشهوة: أن يحب الشهوات المحرمة، مثل: الزنا، والسرقة، وشرب الخمر، والغيبة، والنميمة، ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾(١) أي: مرض الشهوة. والعياذ بالله.

ومرض الشبهة أشد من مرض الشهوة؛ لأن مرض الشبهة لا يتوب صاحبه في الغالب، بخلاف مرض الشهوة فقد يتوب صاحبه، ويصلح عمله.

فقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾(٢): أي مرض الشبهة، ومرض الشهوة، كلا المرضين فيها.

قوله: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ﴾(٣): عقوبة لهم؛ حيث إنهم كفروا بآيات الله سبحانه وتعالى. وقلوبهم فيها المرض من قبل، فلما كفرت بآيات الله زاد مرضها؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾(٤)؛ لأنهم أصبحوا يستهزؤون بها، ويسخرون منها، ولا يؤمنون بها فزاد مرضهم - والعياذ بالله - على مرض سابق، فتضاعف عليهم المرض.

قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٥): هذه عقوبة ثانية، عذاب في الآخرة وعذاب في الدنيا. و﴿أَلِيمٌ﴾: بمعنى: مؤلم موجع، وبين سبب هذا العذاب بقوله: ﴿بِمَا﴾ ﴿كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)﴾(١): في إيمانهم. كيف يكذبون؟ لأنهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر. وهذا كذب، بل هذا أعظم الكذب. وفي قراءة: "بما كانوا يكذبون" أي: يكذبون بآيات الله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة الأحزاب آية: ٣٢.

(٢) سورة البقرة آية: ١٠.

(٣) سورة البقرة آية: ١٠.

(٤) سورة التوبة الآيتان: ١٢٤، ١٢٥.

(٥) سورة البقرة آية: ١٠.

ومن صفاتهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾(٢) أي: إذا نهوا عن النفاق؛ لأن النفاق والكفر والمعاصي إفساد في الأرض؛ لأنها تسبب النكبات والعقوبات، تسبب حبس الأمطار وغور المياه، ويبس الأشجار وانقطاع الثمار، تسبب اختلال الأمن وانقطاع السبل؛ كما قال - تعالى -: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾(٣)، فالكفر والمعاصي والنفاق إفساد

في الأرض، والطاعة والإيمان والعمل الصالح إصلاح في الأرض. ولهذا قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾(٤) أصلحها الله بالوحي والنبوة والإيمان، فالذي يعصي الله ويكفر به مفسد في الأرض.

فمعنى قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾(٥): اتركوا ما يكون سبب لفسادها وهو النفاق، وآمنوا بالله ظاهرا وباطنا كما آمن الناس، أي الصحابة رضي الله عنهم.

قوله: ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)﴾(٦): وهذا من انتكاس الفطر، يعدون النفاق والكفر إصلاحا في الأرض!! فيقولون: إنما نحن بعملنا هذا الذي هو النفاق والكفر مصلحون، من أجل أن نعيش في هذه الدنيا، ويندفع عنا القتل. وهذا بزعمهم إصلاح!!

---

(١) سورة البقرة آية: ١٠.

(٢) سورة البقرة آية: ١١.

(٣) سورة الروم آية: ٤١.

(٤) سورة الأعراف آية: ٥٦.

(٥) سورة البقرة آية: ١١.

(٦) سورة البقرة آية: ١١.

فقال الله - تعالى - ردا عليهم: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾(١) عكس الله عليهم دعواهم، وحصر الإفساد فيهم، فهم وحدهم المفسدون بنفاقهم وكفرهم ﴿وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢)﴾(٢) لا يدرون أن هذا إفساد، بل يعتقدونه إصلاحا.

واليوم أصحاب الشهوات وأصحاب المطامع الخبيثة، يريدون أن يحولوا المسلمين إلى المذاهب الباطلة، وإلى تعطيل الشريعة، وإلى الجرائم وفساد الأخلاق، ويقولون: هذا إصلاح! ويسمون الإيمان والتمسك بالدين جفاء وتحجرا، ورجعية وتأخرا! إلى آخر ما يقولون. ما أشبه الليلة بالبارحة! يريدون أن يحولوا الحكم بما أنزل الله إلى الحكم بالقانون، ويقولون: هذا إصلاح! يريدون أن يخلعوا الحجاب عن النساء ويتركوهن سافرات في الشوارع، ويتولين أعمال الرجال، ويسافرن إلى أي محل، ويقولون: هذا إصلاح! هذا رقي وتقدم! هذا تحضر! وهذا عمل الأمم الراقية! أما إن تعارضوا هذا الأمر فهذا هو الإفساد بزعمهم!! هذا هو نفس الذي ذكره الله عن المنافقين في هذه السورة، وفي قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ

أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢)﴾(٣).

وهؤلاء الذين يقولون هذه المقالات الآن هم منافقون؛ لأنهم يظهرون الإيمان ويخفون في قلوبهم محاربة الله. نسأل الله العافية.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾(٤) آمنوا بالله ورسوله كإيمان الصحابة - رضي الله عنهم -، سماهم الله الناس؛ لأنهم هم الناس في الحقيقة. ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾(١): يسمون الصحابة: السفهاء! لماذا؟ لأنهم آمنوا والتزموا بدين الله: يصلون ويصومون، ويحجبون نساءهم، ويتجنبون الحرام والربا والغش في المعاملات، ويتجنبون الاحتيال والمكر والخديعة. والمنافقون يقولون: هؤلاء سفهاء!!

---

(١) سورة البقرة آية: ١٢.

(٢) سورة البقرة آية: ١٢.

(٣) سورة النساء آية: ٦٢.

(٤) سورة البقرة آية: ١٣.

والسفهاء جمع سفيه، والسفيه هو: ناقص العقل، خفيف العقل، أصله من السفاهة وهي خفة العقل، فهم يصفون الصحابة بخفة العقل؛ لأنهم ليس عندهم مكر وخديعة، ونفاق وتملق، واحتيال على أوامر الله - تعالى - ونواهيه. فهؤلاء السفهاء عندهم!!

قوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾(٢): حصر السفاهة فيهم هم؛ لأنهم الذين ضروا أنفسهم، والسفيه هو الذي يضر نفسه، فهؤلاء هم ضروا أنفسهم بالنفاق والخديعة والمكر. فأي الفريقين سفيه؟ الذين آمنوا بالله ورسوله وصلحوا وأصلحوا، أم الذين نافقوا ولم يؤمنوا؟ لا شك أن الذي لم يؤمن هو السفيه. فالمنافقون هم السفهاء.

قوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾(٣): لأن الله تعالى طمس على قلوبهم فلا يميزون بين الحق والباطل، والسفاهة والرشد، يعتقدون الرشد سفاهة، والسفاهة رشدا؛ لأن عقولهم مرضت، وقلوبهم فسدت فلا تميز بين الحق والباطل. هذه هي بعض صفاتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾(٤). ثم ذكر - تعالى - من صفات

المنافقين: استعمال الوجهين: فيأتون المؤمنين بوجه، ويأتون الكفار بوجه، ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾(٥) أي أظهروا الإيمان: صلوا وصاموا، وعملوا الأعمال التي أمر بها الإسلام، يفعلون هذا في الظاهر من أجل خديعة المؤمنين، ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾(١): خلوا إلى مردة الكفار، والشيطان يوصف به الجن، ويوصف به الإنس، وشياطين الإنس أشد ضررا، فالمراد بشياطينهم: مردة الكفار من المشركين، واليهود، والنصارى، إذا خلوا إليهم ولم يكن معهم أحد من أهل الإيمان، صرحوا بالحقيقة ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾(٢) أي: ما فارقناكم، إنا على عقيدتكم، لكن خدعنا هؤلاء، وأظهرنا لهم الإيمان استهزاء، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤)﴾(٣) مستهزئون بإظهار إيماننا أمامهم، نسخر بهم، ونستهزئ بهم، ونخدعهم، وهم يصدقوننا.

---

(١) سورة البقرة آية: ١٣.

(٢) سورة البقرة آية: ١٣.

(٣) سورة البقرة آية: ١٣.

(٤) سورة البقرة آية: ١٤.

(٥) سورة البقرة آية: ١٤.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾(٤) أي: يستدرجهم ويمهلهم ويعطيهم شيئا من الخير خديعة لهم، ثم يحل بهم العقوبة الرادعة هذا هو الاستهزاء بهم.

والاستهزاء من الصفات التي لا تطلق على الله إلا في مقام المقابلة، فالله لا يوصف بالاستهزاء، لكن يوصف بأنه - سبحانه - حكم عدل، يوصل الجزاء إلى من يستحقه على وجه لا يشعر به، ومن ذلك أن المنافقين يعطون شيئا مما أرادوا في الدنيا، من حقن دمائهم، وحماية أموالهم. لكن لهم العاقبة الوخيمة.

كذلك في الآخرة يعطون شيئا من النور في بداية الأمر، ثم يسلب منهم فيصبحون في ظلمة، كما قال - تعالى -: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾(٥)، ينطفئ نورهم. والعياذ بالله. ولهذا يقول المؤمنون: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ﴾ ﴿شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨)﴾(١)، إذا انطفأ نور المنافقين خاف المؤمنون فدعوا ربهم بإتمام نورهم.

(١) سورة البقرة آية: ١٤.

(٢) سورة البقرة آية: ١٤.

(٣) سورة البقرة آية: ١٤.

(٤) سورة البقرة آية: ١٥.

(٥) سورة الحديد آية: ١٣.

قوله: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾(٢): يستدرجهم ويزيدهم، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ولا يفضح أمرهم، وذلك من أجل أن يستمرئوا النفاق. ويستسيغوه. والطغيان هو: الخروج عن الحق.

وقوله: ﴿يَعْمَهُونَ (١٥)﴾(٣): أي: لا يهتدون أبدا، والعمه هو: الضلال الشديد. والعياذ بالله. ثم ذكر لهؤلاء المنافقين مثلين؛ لتوضيح حالهم للسامع:

المثل الأول ذكره بقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾(٤)، شبههم بمن كان في صحراء مظلمة، فاستوقدوا نارا يعني: أوقدوا النار، أو طلبوا من المؤمنين نارا ليوقدوها، فأوقدوها وانتفعوا بها في أول الأمر، ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾(٥) ورأى ما حوله وتبصر، انطفأت

النار فجأة ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧)﴾(٦) وهذا من استهزاء الله - سبحانه وتعالى - بهم.

المثل الثاني: مثل إنسان أصابه صيب، أي: مطر فيه ظلمات: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، فهو واقع في ظلمات. هذا مثل المنافقين، هم في ظلمات: ظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلمة الشك، وظلمات كثيرة. وهذا هو المراد بقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾(١): يعني بالسماء: السحاب. ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ﴾(٢)، فيه رعود شديدة، وفيه برق شديد، فهم وقعوا في رعب شديد: ظلمات لا يبصرون معها، ورعد شديد قاصف يخشون أن يصعقهم، والعياذ بالله، وبرق شديد خاطف يخطف أبصارهم.

---

(١) سورة التحريم آية: ٨.

(٢) سورة البقرة آية: ١٥.

(٣) سورة البقرة آية: ١٥.

(٤) سورة البقرة آية: ١٧.

(٥) سورة البقرة آية: ١٧.

(٦) سورة البقرة آية: ١٧.

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾(٣)، إذا أضاء الأرض مشوا فيه ينظرون الطريق. ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ﴾(٤): يعني: وقفوا؛ لأنهم لا يبصرون.

هذا مثل المنافق: إن جاءه من الإسلام خير عاجل تمسك به، وإن أصابته فتنة، أو أصابه ضر أو محنة، فإنه يتوقف ويشك في الإسلام.

فمعنى قوله: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ﴾(٥): إذا حصل لهم محن وشدائد وامتحان من الله فإنهم يشكون في هذا الإسلام، ويقولون: هذا ما جاءنا بخير. فمثلهم كمثل الذي أصابه الصيب في الليل، وحصل عنده هذه الإفزاعات، إذا أضاء له البرق مشى، وإذا انقطع البرق وقف؛ لأنه لا يدري أين يذهب، وهؤلاء مثله، إذا جاءهم من الإسلام خير استمروا فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ﴾(٦) فمدعي الإيمان لا بد أن يمتحن في هذه الدنيا؛ ليظهر صدق إيمانه من كذبه، فالذي إيمانه غير صحيح، ينقلب على عقبيه ويكفر، كالمنافق. وأما الصادق الإيمان فهذا ثابت:

إن أصابه خير شكر، وإن أصابه ضر صبر، هذا هو المؤمن. أما المنافق فهو بالعكس: إن أصابه خير أظهر الاطمئنان، وإن أصابته فتنة، كفر بالله - والعياذ بالله - وظهر ما عنده من المكنون، ظهر النفاق الذي في قلبه.

---

(١) سورة البقرة آية: ١٩.

(٢) سورة البقرة آية: ١٩.

(٣) سورة البقرة آية: ٢٠.

(٤) سورة البقرة آية: ٢٠.

(٥) سورة البقرة آية: ٢٠.

(٦) سورة الحج آية: ١١.

والله - سبحانه - أنزل في المنافقين كثيرا من الآيات، أنزل فيهم سورة التوبة التي تسمى الفاضحة؛ لأنها فضحتهم، وسورة "إذا جاءك المنافقون" إضافة إلى ما جاء عنهم في سورة النساء، وآل عمران، والعنكبوت، وغيرها، وكثير من آيات القرآن فيها بيان حال المنافقين، وذلك لخطرهم على المسلمين، ولأجل أن يحذرهم المسلمون. وما أكثرهم - لا كثرهم الله - الآن، يعيشون بيننا، ويبثون سمومهم وشرهم، وهم أناس من بني جلدتنا،

ويتكلمون بألسنتنا، وهم يتسمون بالإسلام وبالإيمان. نسأل الله العافية.

الدرس الرابع

الإسلام العام في القرآن الكريم

١- معنى الإسلام

الإسلام يراد به: ما يقابل الشرك والكفر والأديان الباطلة، فإذا قيل: دين الإسلام فالمراد به: ما يقابل الأديان الأخرى الباطلة.

وتعريفه في اللغة: الانقياد، يقال: أسلم واستسلم إذا انقاد.

وفي الشرع هو: "الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهله".

فإن المسلم لا يجمع بين الاستسلام لله ولغيره. ولهذا من استسلم لله ولغيره فهو مشرك، ومن أبى أن يستسلم لله فهو مستكبر؛ قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ

فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)}[1]، هذا هو الإسلام: الإخلاص لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله، يعني: أهل الشرك فيبغضهم ويعاديهم لله عز وجل.

وهو بهذا التعريف يشمل جميع دين الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، فالرسل كلهم على دين الإسلام، كلهم مستسلمون لله بالتوحيد، منقادون له بالطاعة، مخلصون له العبادة، متجنبون للشرك ومعادون لأهله. فكلهم مسلمون، ودينهم هو الإسلام، وإن اختلفت شرائعهم، فإن الإسلام هو: الانقياد لله بعبادته، حسب ما شرعه في كل وقت. والشرائع وإن اختلفت حسب حكمة الله، وحسب مصالح العباد، إلا أنها كلها لله ﷻ وكلها من تشريعه.

---

(١) سورة البقرة آية: ١١٢.

ولهذا وصف الله - تعالى - نوحا بأنه مسلم؛ قال تعالى: ﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى

اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)}(١) أي: المستسلمين لله والمنقادين له بالطاعة.

وقال عن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)}(٢).

وحكى عنه وعن إسماعيل أنهما قالا: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)}(٣).

وحكى عن يعقوب أنه قال: {يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢)}(٤) أي مخلصون له العبادة، منقادون له بالطاعة.

وحكى عن موسى - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: {يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤)}(٥)، أي: منقادين لله موحدين لله مخلصين له العبادة.

وقال عن بني إسرائيل لما ذكر التوارة: {يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا

مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾(٦)، أسلموا أي: انقادوا لله.

---

(١) سورة يونس الآيتان: ٧١، ٧٢.

(٢) سورة آل عمران آية: ٦٧.

(٣) سورة البقرة آية: ١٢٨.

(٤) سورة البقرة آية: ١٣٢.

(٥) سورة يونس آية: ٨٤.

(٦) سورة المائدة آية: ٤٤.

إذا فالإسلام بمعناه العام يطلق ويراد به: دين جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وإن اختلفت شرائعهم، فالإسلام هو: عبادة الله بما شرع في كل وقت بحسبه.

فعبادة الله بشريعة التوارة، وعبادة الله بشريعة الإنجيل، وعبادة الله بكل شريعة شرعها - سبحانه وتعالى - لأنبيائه كل هذا إسلام، وإنما تعددت الشرائع كما قال - تعالى -: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(١)، لكن إذا نسخ شيء من هذه الشرائع فإن المنسوخ لا يجوز العمل به، ومن عمل به لا يكون مسلما، وإنما يكون مسلما إذا عمل بالناسخ؛ لأن العبد مأمور ومنهي، وهو يتبع ما أمر الله به بالامتثال وما نهى عنه بالاجتناب، هذا

هو العبد. أما الذي يتبع هواه ويتبع رغبته، ويتعصب لما هو عليه أو عليه آباؤه، وإن كان في الأصل مشروعا ثم نسخ، فهذا لا يكون عبدا لله ولا يكون مسلما، فإنه إذا نسخ انتهى العمل به، فمن بقي على الدين المنسوخ فإنه يكون غير مسلم، بل لا بد أن ينتقل إلى الدين الناسخ.

خذ مثلا لذلك: كانت الصلاة في أول الإسلام إلى بيت المقدس، وكان النبي ﷺ والمسلمون يستقبلون بيت المقدس بأمر الله، وفعلهم هذا إسلام، فلما نسخت القبلة وحولت إلى الكعبة(٢) صار حكم الإسلام هو التوجه إلى الكعبة، فمن بقي متوجها إلى بيت المقدس لم يكن مسلما بعد النسخ؛ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾(٣)، فالدين اتباع للرسول، وليس هو تعصب للهوى، ولهذا لما نسخت القبلة كان أناس يصلون العصر إلى بيت المقدس على الأصل، فجاءهم مخبر فأخبرهم أن القبلة حولت إلى الكعبة المشرفة، فاستداروا وهم في الصلاة(١) فكان أول الصلاة إلى بيت المقدس، وآخر الصلاة إلى الكعبة. لأنهم صلوا أول الصلاة إلى بيت المقدس بناء على الأصل حيث لم

يبلغهم خبر تغيير القبلة، ولما بلغهم الخبر انقادوا وتحولوا إلى الكعبة وهم في الصلاة، ولو استمروا بعد الخبر إلى بيت المقدس بطلت صلاتهم. هذا هو الاستسلام والانقياد لله - جل وعلا -.

---

(١) سورة المائدة آية: ٤٨.

(٢) كما في حديث البراء المتفق عليه: البخاري: كتاب التفسير، سورة البقرة آية (١٤٨) باب (١٨)، رقم (٤٤٩٢)، (٨/٢١٨). ومسلم: كتاب المساجد، باب (٢)، رقم (٥٢٥)، (٣/١٣).

(٣) سورة البقرة آية: ١٤٣.

فالله - جل وعلا - يشرع في كل وقت ما تقتضيه المصلحة لعباده تبعا لحكمته - سبحانه وتعالى - وعليهم الامتثال؛ لأن السعادة كل السعادة في اتباع ما أمر الله - تعالى - به، فالمسلم يدور حيثما دار شرع الله - سبحانه وتعالى -.

أما الذي يتبع هواه ويتبع رغبته فهذا عبد لهواه، وليس عبدا لله - سبحانه وتعالى -؛ كما قال - تعالى -: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾(٢).

هذا هو أصل الإسلام، وهو دين جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، ثم لما بعث محمد ﷺ صار الإسلام هو ما جاء به، ونسخت الأديان السابقة. فالإسلام ناسخ لما قبله، فمن بقي على اليهودية أو النصرانية فإنه يكون كافرا؛ لأنه بقي على دين قد نسخ، وقد أمر الناس جميعا باتباع هذا الرسول ﷺ وما جاء به من الشرائع الإسلامية، فلا يجوز لليهود أن يبقوا على اليهودية، ولا يجوز للنصارى أن يبقوا على النصرانية، ولهذا قال ﷺ: «لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي»(٣)(٤)؛ لأن الله أخذ الميثاق على الرسل وعلى الأنبياء جميعا إذا بعث محمد ﷺ ومنهم أحد موجود أن يتبعه؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا﴾ ﴿أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)﴾(١) ولذلك إذا نزل المسيح - عليه الصلاة والسلام - قبل قيام الساعة يكون تابعا لمحمد ﷺ بحكم بشريعة الإسلام.

(١) كما في حديث ابن عمر المتفق عليه: البخاري: كتاب الصلاة، باب (٣٢)، رقم (٤٠٣)، (١/٦٥٥). ومسلم: كتاب المساجد، باب (٢)، رقم (٥٢٦) (٣/١٣).

(٢) سورة الجاثية آية: ٢٣.

(٣) أحمد (٣/٣٨٧)، الدارمي المقدمة (٤٣٥).

(٤) أخرجه أحمد من حديث جابر بن عبد الله: برقم (١٥٢٢٣)، (٥/٢٤٣).

وبعد بعثة رسول الله ﷺ يجب على جميع الثقلين الإنس والجن اتباعه إلى أن تقوم الساعة، فمن بقي على دين غير دين محمد ﷺ فإنه يكون كافرا، وإن كان الدين الذي عليه مشروعا في الأصل؛ لأنه قد نسخ وأمر الناس باتباع هذا الرسول ﷺ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾(٢)، ولهذا كاتب النبي ﷺ ملوك الدنيا يدعوهم إلى الإسلام، فكتب إلى كسرى، وكتب إلى قيصر، وغيرهم(٣) وكان يقول لأحدهم: «أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين»(٤)(٥) يعني: تتحملون آثام من تبعكم من الفلاحين، ومن العامة.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بي

إلا دخل النار»(٦)(٧).

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٨١ - ٨٣.

(٢) سورة الأعراف آية: ١٥٨.

(٣) كما في حديث أنس عند مسلم: كتاب الجهاد، باب (٢٧)، رقم (١٧٧٤)، (٦/٣٢٩).

(٤) البخاري بدء الوحي (٧)، مسلم الجهاد والسير (١٧٧٣)، أحمد (١/٢٦٣).

(٥) كما في حديث أبي سفيان المتفق عليه في قصة هرقل. البخاري: كتاب بدء الوحي، باب (٦)، رقم (٧)، (١/٤٣). ومسلم: كتاب الجهاد، باب (٢٦)، رقم (١٧٧٣)، (٦/٣٢٢).

(٦) مسلم الإيمان (١٥٣)، أحمد (٢/٣٥٠).

(٧) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة: كتاب الإيمان، باب (٧٠)، رقم (١٥٣)، (١/٣٦٤).

وبهذا يبطل هذا الهراء الذي يطنطنون به الآن من القول بحرية الاعتقاد، أو حرية الأديان، فهذا القول كفر والعياذ بالله. فليس هناك إلا اتباع هذا الرسول ﷺ لا نجاة إلا باتباعه.

وكذلك ما يلفقونه من الحوار والتقارب بين الأديان! وهذا كلام باطل، والعياذ بالله، وكيف يحاور بين دين باطل منسوخ ودين حق، وهو دين الإسلام؟! يحاور بين الكفر والإسلام، أو يسوى

بين الكفر والإسلام!! ويقال: هذه أديان سماوية! نعم، كانت في الأصل سماوية، لكن بعد بعثة الرسول ﷺ تحول الأمر إلى ما جاء به الرسول ﷺ فمن بقي على دين غير الدين الذي جاء به الرسول ﷺ فإنه كافر مباح الدم والمال، يجب قتاله حتى يدخل في الإسلام، أو يدفع الجزية إن كان من أهل الكتاب أو المجوس صاغرا منقادا للإسلام.

هذا هو الإسلام بمعناه العام، وبمعناه الخاص الذي بعث الله به محمدا ﷺ.

٢- أركان الإسلام

الركن الأول الشهادتان

هذا الإسلام الذي جاء به الرسول ﷺ ينبني على أركان هي دعائمه، وكذلك ينبني على قربات وطاعات مكملة لهذه الأركان، فكل ما جاء به الرسول ﷺ من الأمر والنهي فإنه هو الإسلام. لكن هناك أشياء هي دعائم للإسلام وأركان له، بينها حديث جبريل - عليه السلام - لما جاء إلى النبي ﷺ وقال: «أخبرني

عن الإسلام، قال: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا»(١)(٢) ففسر الإسلام بهذه الأركان؛ لأن الإسلام يقوم عليها كما يقوم البناء على أركانه وعلى دعائمه، وليست هي الإسلام كله، إنما هي دعائمه، والإسلام: كل ما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي.

والدليل على ذلك: حديث ابن عمر رضي الله عنه وفيه يقول ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»(٣)(٤).

فقوله: "بني" يدل على أن هذه الخمس هي الدعائم التي بني عليها وقام عليها.

(١) مسلم الإيمان (٨)، الترمذي الإيمان (٢٦١٠)، النسائي الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠)، أبو داود السنة (٤٦٩٥)، ابن ماجه المقدمة (٦٣)، أحمد (١/٥٢).

(٢) أخرجه مسلم من حديث عمر: كتاب الإيمان، باب (١)، رقم (٨)، (١/١٠١). وهو متفق عليه أيضا من حديث أبي هريرة: البخاري: كتاب الإيمان، باب (٣٧)، رقم (٥٠)، (١/١٥٢). ومسلم: كتاب الإيمان، باب (١)، رقم (٩، ١٠)، (١/١١٥).

(٣) البخاري الإيمان (٨)، مسلم الإيمان (١٦)، الترمذي الإيمان (٢٦٠٩)، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٠١)، أحمد (٢/٩٣).

(٤) متفق عليه من حديث ابن عمر: البخاري: كتاب الإيمان، باب (٢)، رقم (٨)، (١/٦٩). ومسلم: كتاب الإيمان، باب (٥)، رقم (١٦)، (١/١٣٠).

وحديث ابن عمر هذا مفسر لحديث عمر في قصة جبريل عليه السلام، ومبين أن هذه الأمور التي ذكرها النبي ﷺ في حديث جبريل، إنما هي أركان الإسلام ومبانيه، وهناك شرائع مكملة لهذه المباني، ولهذا يقول ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»(١)(٢) فكل الطاعات سواء كانت واجبة أم مستحبة كلها من الإسلام، وتجنب كل المحرمات التي نهى الله عنها هو من الإسلام، فترك الزنا والسرقة وشرب الخمر، وأكل الربا، والغيبة والنميمة، وكل ما نهى الله عنه، تركه هو الإسلام، لكن

هذه الخمس هي دعائمه، وما زاد عنها فإنه يكون متمما ومكملا لها.

وهذه الأركان الخمسة ذكرها الله في القرآن في آيات كثيرة.

أ- أما الركن الأول: وهو الشهادتان:

فهذا كثير في القرآن، كل الآيات التي تأمر بالتوحيد وتنهى عن الشرك، فإنها في تحقيق الركن الأول، وكل الآيات التي توجب طاعة الرسول ﷺ واتباعه، وتثبت رسالته فإنها تدخل أيضا في تحقيق الركن الأول.

من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾(٣) وقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)﴾(٤)، وقوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤)﴾(٥) إلى غير ذلك من الآيات التي تأمر بعبادة الله وتنهى عن الإشراك به.

(١) البخاري الإيمان (١٠)، مسلم الإيمان (٤٠)، النسائي الإيمان وشرائعه (٤٩٩٦)، أبو داود الجهاد (٢٤٨١)، أحمد (٢/١٩٢)، الدارمي الرقاق (٢٧١٦).

(٢) أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن عمرو: كتاب الرقاق، باب (٢٦)، رقم (٦٤٨٤)، (١١/٣٨٣) وأخرجه مسلم من حديث جابر: كتاب الإيمان، باب (١٤)، رقم (٤٠)، (١/٢٠٢) وهو متفق عليه بنحوه من حديث أبي موسى الأشعري: البخاري (١١)، ومسلم (٤٢).

(٣) سورة البقرة آية: ٢١.

(٤) سورة البقرة آية: ١٦٣.

(٥) سورة غافر آية: ١٤.

ومن الآيات التي تدل على شهادة أن محمدا رسول الله: قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾(١) فهي تثبت بالمعجزة رسالة النبي ﷺ، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)﴾(٢)، وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ (١)﴾(٣)، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾(٤) و﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾(٥)، وقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ﴾(٦)، وقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ﴾(٧)، وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)﴾(٨)، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا

الْمُزَّمِّلُ (١)﴾(٩) وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١)﴾(١٠) كلها خطابات للرسول ﷺ وفيها إثبات رسالته ﷺ.

وكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)﴾(١١)، وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾(١٢)، يعنى محمدا ﷺ.

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٣.

(٢) سورة الفرقان آية: ١.

(٣) سورة الكهف آية: ١.

(٤) سورة الأنفال آية: ٦٤.

(٥) سورة المائدة آية: ٤١.

(٦) سورة الأحزاب آية: ٤٠.

(٧) سورة الفتح آية: ٢٩.

(٨) سورة البقرة آية: ٢٥٢.

(٩) سورة المزمل آية: ١.

(١٠) سورة المدثر آية: ١.

(١١) سورة البقرة آية: ١١٩.

(١٢) سورة المزمل آية: ١٥.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾(١)، وقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦)﴾(٢) كل هذه الآيات فيها إثبات الرسالة للنبي ﷺ.

كذلك الأمر بطاعته: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ﴾(٣) ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦)﴾(٤)، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)﴾(٥) فهذه الآيات وغيرها في الركن الأول بجزأيه: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

فالآيات التي تأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، معناها: شهادة أن لا إله إلا الله.

والآيات التي تثبت رسالة محمد ﷺ وتأمر باتباعه والاقتداء به، هي في شهادة أن محمدا رسول الله.

هذا هو الركن الأول، وهو أصل الدين وأساسه، يقوم عليه الدين كله، لا يقوم الإسلام ولا الإيمان إلا إذا تحقق الركن الأول (شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله).

وهذا الركن مكث النبي ﷺ يدعو إليه في مكة ثلاث عشرة سنة بعد البعثة.

---

(١) سورة البقرة آية: ١٤٣.

(٢) سورة الأحزاب الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٣) سورة النساء آية: ٨٠.

(٤) سورة النور آية: ٥٦.

(٥) سورة النور آية: ٥٤.

الركن الثاني الصلاة

وقد فرضت على رسول الله ليلة المعراج قبيل الهجرة من مكة إلى المدينة، لما أسري به إلى بيت المقدس وعرج به إلى السماء، أي صعد بالنبي بروحه وجسده، يقظة لا مناما، إلى السماء إلى ربه ففرض الله عليه الصلوات الخمس فوق سبع سماوات(١).

وقد ذكر الله الصلاة في القرآن في آيات كثيرة، فتارة يأمر بإقامتها: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾(٢) وتارة يأمر بالمحافظة عليها: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾(٣)، وتارة يتوعد

المضيعين لها: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥)﴾(٤)، ﴿۞ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩)﴾(٥)، وتارة يخبر عن مصير المضيعين للصلاة: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢)﴾(٦) أي: النار ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧)﴾(٧)، فذكر أول ما أجابوا: أنهم لا يصلون: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣)﴾(٨).

---

(١) متفق عليه من حديث أنس، وقد تقدم تخريجه.

(٢) سورة البقرة آية: ٤٣.

(٣) سورة البقرة آية: ٢٣٨.

(٤) سورة الماعون الآيتان: ٤، ٥.

(٥) سورة مريم آية: ٥٩.

(٦) سورة المدثر آية: ٤٢.

(٧) سورة المدثر آية: ٤٧.

(٨) سورة المدثر آية: ٤٣.

وبين النبي ﷺ أن الصلاة هي عمود الدين(١) من حفظها فقد حفظ دينه، ومن ضيعها فقد ضيع دينه. وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة من أمور دينه الصلاة(٢) فإن قبلت قبل سائر عمله، وإن ردت رد سائر عمله(٣).

وقد تردد ذكر الصلاة في القرآن وتنوع في آيات كثيرة لأنها عمود الإسلام وهي الفارقة بين المسلم والكافر؛ قال ﷺ: «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»(٤) (٥) وقال ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»(٦) (٧) فلا دين لمن لا صلاة له.

وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾(٨) فذكر في الصلاة فائدتين عظيمتين:

(١) كما في حديث معاذ: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة)، أخرجه: الترمذي: كتاب الإيمان، باب (٨)، رقم (٢٦٢١)، (٥/١٢). ونحوه عند أحمد: برقم (٢٢٣٦٦) (٧/٣٥٠). وأخرجه بلفظ: (الصلاة عمود الدين) عن ابن عمر: البيهقي في شعب الإيمان.

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة: أبو داود: كتاب الصلاة، باب (١٤٩)، رقم (٨٦٤)، (١/٣٧٨) والترمذي: كتاب الصلاة، باب (١٨٨)، رقم (٤١٣)، (٢/٢٦٩) والنسائي: كتاب الصلاة، باب (٩)، رقم (٤٦٤)، (١/٢٥١) وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب (٢٠٢)، رقم (١٤٢٥)، (٢/١٨٢).

(٣) أخرج هذه الزيادة الطبراني في الأوسط من حديث أنس.

(٤) مسلم الإيمان (٨٢)، الترمذي الإيمان (٢٦٢٠)، أبو داود السنة (٤٦٧٨)، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٠٧٨)، أحمد (٣/٣٨٩)، الدارمي الصلاة (١٢٣٣).

(٥) أخرجه مسلم من حديث جابر: كتاب الإيمان باب (٣٥)، رقم (٨٢)، (١/٢٥٩).

(٦) الترمذي الإيمان (٢٦٢١)، النسائي الصلاة (٤٦٣)، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٠٧٩)، أحمد (٥/٣٤٦).

(٧) أخرجه من حديث بريدة: أحمد: برقم (٢٣٣٢٥)، (٧/٦١٤) والترمذي: كتاب الإيمان باب (٩)، رقم (٢٦٢٦)، (٥/١٣). والنسائي: كتاب الصلاة باب (٨)، رقم (٤٦٢)، (١/٢٥٠). وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة باب (٧٧)، رقم (١٠٧٩)،

(١/٥٦٤). وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤١٤٣).

(٨) سورة العنكبوت آية: ٤٥.

الأولى: أنها تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، فالذي يحافظ على الصلاة يتجنب الفحشاء والمنكر.

الثانية: أن فيها ذكر الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(١) فالصلاة ذكر الله عز وجل.

والصلاة أيضا يستعان بها على الشدائد؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)﴾(٢)، وقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)﴾(٣)، وقال - تعالى - في شأنها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)﴾(٤)، ثم ختم الآيات بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)﴾(٥).

هذه هي الصلاة (الركن الثاني من أركان الإسلام)، وذكرها في القرآن كثير، حتى إن الله تعالى علق عصمة الدم والمال بإقامة الصلاة؛ قال تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ﴾(٦)، وقال في الآية الأخرى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ﴾(٧)، فلو تابوا وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ولم يقيموا الصلاة فإنهم لا يخلى سبيلهم؛ بل يقاتلون ليقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة؛ لأن الزكاة قرينة الصلاة في كتاب الله عز وجل.

---

(١) سورة العنكبوت آية: ٤٥.

(٢) سورة البقرة آية: ١٥٣.

(٣) سورة البقرة الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٤) سورة المؤمنون الآيتان: ١، ٢.

(٥) سورة المؤمنون الآيات: ٩-١١.

(٦) سورة التوبة آية: ٥.

(٧) سورة التوبة آية: ١١.

الركن الثالث الزكاة

وقد فرضت في السنة الثانية من الهجرة، وبعث النبي ﷺ السعاة لجباية الزكاة.

وقد تكرر ذكرها في القرآن، وكلما ذكرت الصلاة - في الغالب - ذكرت في جانبها الزكاة؛ قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾(١)، ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)﴾(٢)، والحق المعلوم هو الزكاة.

وقال تعالى عنها: ﴿۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾(٣) أي الزكاة ﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ﴾(٤) لما أوجبها على عباده بين مصارفها تأكيدا لشأنها.

وقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ﴾(٥)، قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾(٦) ولم يقل خذ أموالهم؛ لأن الزكاة حد محدود من المال، لا يضر بأصحاب الأموال، وإنما يعود عليهم بالنفع والبركة، ولذلك قال:

{تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا}(٧)، فهي تعود عليهم بالطهارة والنماء في أموالهم، وفي أعمالهم وحسناتهم.

ويتكرر ذكر الزكاة في القرآن: تارة مقرونة مع الصلاة، وهو الغالب، وتارة تأتي وحدها مما يدل على أهميتها.

---

(١) سورة البقرة آية: ٤٣.

(٢) سورة المعارج الآيات: ٢٢-٢٥.

(٣) سورة التوبة آية: ٦٠.

(٤) سورة التوبة آية: ٦٠.

(٥) سورة التوبة آية: ١٠٣.

(٦) سورة التوبة آية: ١٠٣.

(٧) سورة التوبة آية: ١٠٣.

ولما منع قوم دفع الزكاة بعد وفاة رسول الله ﷺ قاتلهم أبو بكر الصديق ومعه صحابة رسول الله ﷺ وقال: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه»(١) (٢).

الركن الرابع الصيام

وكان فرضه في السنة الثانية للهجرة، وهو مذكور في آيات كثيرة: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)﴾(٣) إلى قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ﴾(٤)، فأوجب الله صيام رمضان إما: أداء في حق المقيم الصحيح، وإما قضاء في حق المسافر أو المريض، فلا بد من صيام رمضان على المسلم البالغ العاقل؛ لأنه ركن من أركان الإسلام.

وأثنى الله على الصائمين في آيات، مثل قوله - تعالى - في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾(٥) إلى قوله ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾(٦) فجعل من جملة صفات المؤمنين الصيام.

(١) البخاري الاعتصام بالكتاب والسنة (٦٨٥٥)، مسلم الإيمان (٢٠)، الترمذي الإيمان (٢٦٠٧)، النسائي الجهاد (٣٠٩١)، أبو داود الزكاة (١٥٥٦)، أحمد (١/٣٦).

(٢) متفق عليه من قول أبي بكر كما في حديث أبي هريرة: البخاري: كتاب الزكاة، باب (١)، رقم (١٣٩٩)، (٣/٣٣١). ومسلم: كتاب الإيمان، باب (٨)، رقم (٢٠)، (١).

(٣) سورة البقرة آية: ١٨٣.

(٤) سورة البقرة آية: ١٨٥.

(٥) سورة الأحزاب آية: ٣٥.

(٦) سورة الأحزاب آية: ٣٥.

الركن الخامس الحج

وتأخر فرضه إلى السنة التاسعة من الهجرة، ولم يحج النبي ﷺ في السنة التاسعة؛ لوجود المشركين الذين يطوفون بالبيت عراة، وأرسل أبا بكر الصديق رضي الله عنه يحج بالناس، وأرسل بعده علي بن أبي طالب رضي الله عنه ينادي في الناس بصدر سورة براءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان(١) فلما تطهر البيت من المشركين والعراة حج النبي ﷺ في السنة العاشرة حجة الوداع التي لم يمكث بعدها

في الدنيا إلا أقل من ثلاثة أشهر حتى لحق بالرفيق الأعلى ﷺ وجزاه عن أمته أفضل ما جزى نبيا عن أمته.

وقد أنزل الله - تعالى - في شأن الحج قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾(٢) وهذا يقتضي الوجوب، وأن الحج حق لله - سبحانه وتعالى - على المستطيع من الناس.

وقوله: ﴿اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾(٣)، أي: الزاد والمركوب الذي يوصله ويبلغه إلى مكة. أما الذي لا يستطيع لكونه فقيرا ليس عنده زاد، أو عنده زاد لكن ليس عنده ما يركبه من وسائل النقل ويبلغه، فهذا معذور في المبادرة لأداء الحج، ويبقى في ذمته إلى أن يستطيع. كذلك المريض إذا لم يستطع بدنيا ويرجى شفاؤه فإنه أيضا ينتظر. أما إذا كان مرضه مزمنا ولا يستطيع، أو كان كبيرا هرما لا يستطيع السفر للحج، فهذا يوكل من يحج عنه؛ لأن الحج تدخله النيابة عن العاجز الذي لا يستطيع لمرض مزمن أو لكبر. أما الذي لا يستطيع لعدم وجود المال فهذا لا يجب عليه الحج. أما الذي يستطيع ماديا ولا يستطيع بدنيا فهذا: إذا كان يرجى زوال المانع فإنه ينتظر، وإن كان لا يرجى زوال المانع فإنه يوكل، ولهذا لما «جاءت امرأة على النبي ﷺ

فقالت: إن أبي أدركته فريضة الله على عباده في الحج وهو هرم لا يستطيع الثبات على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال رسول الله ﷺ فحجي عنه»(١) (٢).

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة: البخاري: كتاب الصلاة، باب (١٠)، برقم (٣٦٩)، (١/٦١٩) ومسلم: كتاب الحج، باب (٧٨)، رقم (١٣٤٧)، (٥/١١٩) مختصرا.

(٢) سورة آل عمران آية: ٩٧.

(٣) سورة آل عمران آية: ٩٧.

ولما كان الحج يؤتى إليه من بعيد في الأغلب، وفيه مشقة وأخطار، جعله الله في العمر مرة واحدة؛ تيسيرا على الناس، وما زاد فهو تطوع. أما الصلاة فإنها تتكرر في اليوم والليلة خمس مرات، وهذا يدل على عظمتها وقدرها عند الله - سبحانه وتعالى -.

والزكاة تجب مرة عند تمام السنة (تمام الحول)، وكذلك الصيام الواجب فيه صيام شهر من اثني عشر شهرا من السنة. وهذا من تيسير الله - سبحانه وتعالى -.

ثم إن هذه الأركان: منها ما هو بدني لا تدخله النيابة، كالصلاة والصيام، ومنها ما هو مالي كالزكاة، ومنها ما هو مركب من الأمرين: بدني ومالي، وهو الحج؛ لأن الحج يتكون من الاستطاعة المالية والاستطاعة البدنية.

فهذه أركان الإسلام كما جاءت في القرآن الكريم.

تبيين السنة ما أجمله القرآن الكريم من هذه الأركان

وقد بينت السنة ما أجمله القرآن الكريم من هذه الأركان:

فالقرآن ذكر الصلاة وبين أوقاتها من غير تفصيل؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا (١٠٣)﴾(٣)، وقال - تعالى -: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨)﴾ (١) فهذا بيان مجمل للأوقات.

(١) البخاري الحج (١٤٤٢)، مسلم الحج (١٣٣٤)، الترمذي الحج (٩٢٨)، النسائي مناسك الحج (٢٦٤٢)، أبو داود المناسك (١٨٠٩)، ابن ماجه المناسك (٢٩٠٧)، أحمد (١/٣٥٩)، مالك الحج (٨٠٦)، الدارمي المناسك (١٨٣٣).

(٢) متفق عليه من حديث الفضل في قصة الخثعمية: البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب (٢٣)، رقم (١٥١٣، ١٨٥٤)، (٤/٨٦). ومسلم: كتاب الحج، باب (٧١)، رقم (١٣٣٤، ١٣٣٥)، (٥/١٠٢)، (واللفظ له).

(٣) سورة النساء آية: ١٠٣.

ثم جاءت السنة فبينت أوقات الصلوات الخمس على التفصيل، بينت أن صلاة الفجر يبدأ وقتها بطلوع الفجر الصادق، وأن صلاة الظهر يبدأ وقتها بزوال الشمس عن وسط السماء، وأن صلاة العصر إذا بلغ ظل الشيء مثله، وأن صلاة المغرب يبدأ وقتها بغروب الشمس، وأن صلاة العشاء يبدأ وقتها بمغيب الشفق الأحمر.

فجعل الله - سبحانه وتعالى - علامات المواقيت واضحة، يعرفها كل أحد: المتعلم والعامي، والحضري والبدوي.

كذلك الصيام جعل الله علامته واضحة، وهو الهلال؛ قال تعالى: ﴿۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ﴾(٢)

وقال النبي ﷺ «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»(٣) (٤).

هكذا دين الإسلام، ولله الحمد، دين اليسر والسماحة والسهولة، ليس فيه آصار ولا أغلال، وإنما هو دين ميسر، وكذلك - كما ذكرنا - فالله - جل وعلا - لم يذكر عدد الركعات. وإنما أمر بإقامة الصلاة مطلقا، ولم يبين أوقاتها، ولم يبين أعداد الركعات. والنبي ﷺ بين بفعله أن صلاة الفجر ركعتان، وأن صلاة الظهر أربع ركعات، وأن صلاة العصر أربع ركعات، وأن صلاة المغرب ثلاث ركعات، وأن صلاة العشاء أربع ركعات. هذا للمقيم، وأما المسافر فيقصر الرباعية إلى ركعتين. هكذا بينت السنة ما جاء في القرآن الكريم من أمر الصلاة.

---

(١) سورة الروم الآيتان: ١٧، ١٨.

(٢) سورة البقرة آية: ١٨٩.

(٣) البخاري الصوم (١٨١٠)، مسلم الصيام (١٠٨١)، الترمذي الصوم (٦٨٤)، النسائي الصيام (٢١١٧)، ابن ماجه الصيام (١٦٥٥)، أحمد (٢/٤٩٧)، الدارمي الصوم (١٦٨٥).

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة: البخاري: كتاب الصوم، باب (١١)، رقم (١٩٠٩)، (٤/١٥٤). ومسلم: كتاب الصيام، باب (٢)، رقم (١٠٨١)، (٤/١٩٣).

وكذلك في الزكاة: فالله - جل وعلا - أمر بإعطاء الزكاة إجمالا، ولم يبين الأموال التي تجب فيها، فبين رسول الله ﷺ أنها تجب في أربعة أنواع: بهيمة الأنعام، وعروض التجارة، والحبوب والثمار، والنقدان (الذهب والفضة)، هذه هي الأموال التي تجب فيها الزكاة.

ثم بين ﷺ المقدار الواجب، وأنه ربع العشر من الذهب والفضة، وبين النصاب، وأنه من الذهب عشرون مثقالا، ومن الفضة مئة وأربعون مثقالا(١) وبين النصاب من الغنم، ومن البقر، ومن الإبل(٢).

أما أهل الزكاة فإن الله - جل وعلا - لم يكل بيانهم إلى الرسول ﷺ وإنما تولاه بنفسه؛ قال الله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠)﴾(٣).

كذلك الصيام، يقول الله - جل وعلا -: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ﴾(٤)، هذا فيه إجمال.

والرسول ﷺ بين المراد من الخيط الأبيض ومن الخيط الأسود أنه: «سواد الليل وبياض النهار»(٥)، فإذا خرج النهار - وهو البياض المعترض في الأفق - فإنه يمسك الصائم.

---

(١) كما في حديث أبي سعيد: (ليس فيما دون خمسة أواق صدقة)، أخرجه البخاري كتاب الزكاة، باب (٣٢)، رقم (١٤٤٧)، (٣/٣٩١) ومسلم (رقم ٩٧٩). وحديث أبي بكر في الصدقات (وفي الرقة ربع العشر)، رقم (١٤٥٤).

(٢) كما في حديث أبي بكر في الصدقات، أخرجه البخاري: كتاب الزكاة باب (٣٨)، رقم (١٤٥٤) (٣/٣٩٩). في زكاة الإبل والغنم والفضة.

(٣) سورة التوبة آية: ٦٠.

(٤) سورة البقرة آية: ١٨٧.

(٥) البخاري الصوم (١٨١٧)، مسلم الصيام (١٠٩٠)، الترمذي تفسير القرآن (٢٩٧١)، النسائي الصيام (٢١٦٩)، أبو داود الصوم (٢٣٤٩)، أحمد (٤/٣٧٧)، الدارمي الصوم (١٦٩٤).

ولما سمع بعض الصحابة قوله - تعالى -: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾(١)، أخذ خيطين أحدهما أسود والآخر أبيض، ووضعهما عند رأسه، وصار ينظر فيهما، فلم يتبين له إلا بعدما اتضح النهار فجاء إلى النبي ﷺ وأخبره، فبين له النبي ﷺ أنه ليس هذا هو المقصود، وإنما المقصود

بياض النهار وسواد الليل(٢) وليس المراد الخيوط المعهودة المعروفة. هذا بيان رسول الله ﷺ. وقال: «إذا أقبل الليل من ها هنا»(٣) يعنى: من المشرق: «وأدبر النهار من هاهنا»(٤) يعني من المغرب «وغربت الشمس؛ فقد أفطر الصائم»(٥) (٦) أي: انتهى صيامه، فإذا بقي بعد غروب الشمس لا يأكل ولا يشرب فهذا ليس بصيام، ولا يثاب عليه؛ لأنه انتهى وقت العبادة وانتهى وقت الصيام، ولا يزاد على ما شرعه الله، إلا ما جاء في حق الوصال إلى السحر(٧) فهذا شيء آخر.

وكذلك القول في الحج جاء الأمر به في القرآن مجملا من وجوه عديدة:

كم مرة يجب في العمر؟ بين النبي ﷺ أنه يجب مرة واحدة.

(١) سورة البقرة آية: ١٨٧.

(٢) والحديث متفق عليه عن عدي بن حاتم: البخاري: كتاب الصوم، باب (١٦)، رقم (١٩١٦) (٤/١٦٩) مسلم: كتاب الصيام، باب (٨)، رقم (١٠٩٠)، (٤/٢٠٠).

(٣) البخاري الصوم (١٨٥٣)، مسلم الصيام (١١٠٠)، الترمذي الصوم (٦٩٨)، أبو داود الصوم (٢٣٥١)، أحمد (١/٢٨)، الدارمي الصوم (١٧٠٠).

(٤) البخاري الصوم (١٨٥٣)، مسلم الصيام (١١٠٠)، الترمذي الصوم (٦٩٨)، أبو داود الصوم (٢٣٥١)، أحمد (١/٤٨)، الدارمي الصوم (١٧٠٠).

(٥) البخاري الصوم (١٨٥٣)، مسلم الصيام (١١٠٠)، الترمذي الصوم (٦٩٨)، أبو داود الصوم (٢٣٥١)، أحمد (١/٤٨)، الدارمي الصوم (١٧٠٠).

(٦) متفق عليه من حديث عمر (وابن عمر): البخاري: كتاب الصوم، باب (٤٣)، رقم (١٩٥٤)، (٤/٢٤٩) ومسلم: كتاب الصيام، باب (١٠)، رقم (١١٠٠)، (٤/٢٠٩).

(٧) أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد: كتاب الصوم، باب (٤٨)، رقم (١٩٦٣)، (٤/٢٥٧).

كيف يؤدى الحج؟ بين النبي ﷺ ذلك بفعله، فقد حج النبي ﷺ بأصحابه وقال لهم: «خذوا عني مناسككم»(١) (٢) فبين ﷺ مناسك الحج: من طواف وسعي ووقوف بعرفة.

وبين متى يبدأ الوقوف؛ ومتى ينتهي والله - جل وعلا - يقول: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾(٣)، لكن لم يبين وقته، والرسول ﷺ بينه.

وكذلك المبيت بمزدلفة قال الله - تعالى -: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾(٤)، ولم يبين تفاصيل ذلك، والنبي ﷺ بين ذلك بأن نزل بمزدلفة، وصلى بها المغرب والعشاء جمعا وقصرا، ثم بات - عليه الصلاة والسلام -، ثم صلى الفجر بغلس مبكرا، ثم وقف يدعو حتى أسفر جدا، ثم دفع إلى منى فبين كيف نذكر الله عند المشعر الحرام.

وقال تعالى: ﴿۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾(٥) يعني: أيام التشريق والنبي ﷺ بين ماذا يفعل في أيام التشريق: النزول بمنى، والمبيت بها، ورمي الجمار، وبين ﷺ كيف يبدأ وكيف ينتهي، وبكم ترمى الجمرات، وأن ذلك بسبع حصيات، فبين ﷺ البيان الشافي(٦).

(١) مسلم الحج (١٢٩٧)، أبو داود المناسك (١٩٧٠)، أحمد (٣/٣١٨).

(٢) أخرجه مسلم من حديث جابر بلفظ: (لتأخذوا مناسككم) كتاب الحج، باب (٥١)، رقم (١٢٩٧) (٥/١٤٩) وأخرجه بلفظ: (لتأخذوا مناسككم) أحمد: برقم (١٤٤٧٢) (٥/٧٥) والنسائي: كتاب المناسك، باب (٢٢٠)، رقم (٣٠٦٢، ٣/٢٩٨).

(٣) سورة البقرة آية: ١٩٩.

(٤) سورة البقرة آية: ١٩٨.

(٥) سورة البقرة آية: ٢٠٣.

(٦) كما في الأحاديث الكثيرة الواردة في صفة حجة الوداع، وأوفاها حديث جابر عند مسلم: كتاب الحج، باب (١٩) رقم (١٢١٨) (٤/٤٠٢).

ولهذا يقول العلماء: إن السنة المطهرة مفسرة للقرآن ومبينة له، وهي وحي من الله جل وعلا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾(٣). والكتاب هو القرآن، والحكمة هي السنة المطهرة.

هذه هي أركان الإسلام الخمسة كما جاءت في القرآن الكريم، وكما بينتها سنة رسول الله ﷺ وليس الإسلام مقصورا عليها،

بل هي أركانه ودعائمه ومبانيه، ولكن كل ما أمر الله سبحانه وتعالى بفعله؛ ففعله هو الإسلام، وكل ما أمر الله - سبحانه وتعالى - بتركه فاجتنابه وتركه هو الإسلام.

ويقول جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾(٤): السلم هو الإسلام، أي: اعملوا بكل شرائعه، ولا يقتصر على بعض شرائع الإسلام ويترك البعض، وقد هم قوم أن يأخذوا ببعض شرائع الإسلام، ويتركوا البعض الآخر، فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨)﴾(٥) لكن هذا حسب المقدرة والاستطاعة؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾(٦).

وهناك أمور لا بد منها وهي الأركان، وهناك أمور مكملة لها تكميلا واجبا أو تكميلا مستحبا، والتكميل الواجب من تركه يأثم، والتكميل المستحب من تركه لا يأثم، ولكن في ترك التكميل الواجب والمستحب نقص في الإسلام، بحسب ما ترك من الطاعات وما يرتكب من المحرمات والمكروهات، فينقص

من إسلامه بذلك، وكلما أكثر من الطاعات وتجنب المحرمات كمل إسلامه.

---

(١) سورة الحشر آية: ٧.

(٢) سورة النحل آية: ٤٤.

(٣) سورة النساء آية: ١١٣.

(٤) سورة البقرة آية: ٢٠٨.

(٥) سورة البقرة آية: ٢٠٨.

(٦) سورة البقرة آية: ٢٨٦.

الدرس الخامس

الإيمان في القرآن الكريم

١- تمهيد في بيان مراتب الدين

الإسلام والإيمان والإحسان: مراتب للدين، كما بينها النبي ﷺ.

المرتبة الأولى: الإسلام، وله خمسة أركان، وقد تقدم بيانها بالتفصيل.

المرتبة الثانية: الإيمان، وله ستة أركان، وهي مذكورة في القرآن الكريم في آيات كثيرة.

المرتبة الثالثة - وهي أعلاها -: الإحسان.

كما بينها رسول الله ﷺ في حديث جبريل عليه الصلاة والسلام لما سأله عن هذه المراتب الثلاث، بينها واحدة واحدة(١).

٢- تعريف الإيمان

الإيمان في اللغة العربية معناه: التصديق، أي: التصديق بالإخبار عن شيء غائب، ويكون معه ائتمان للمخبر، أي يكون المصدق قد أمن المصدق فيما أخبر به.

أما الإيمان في الشرع فهو: "القول باللسان، والتصديق بالقلب، والعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية"، فليس هو مجرد التصديق كما هو في اللغة.

والذين يقولون: الإيمان هو التصديق فقط، هم المرجئة، وهؤلاء غالطون، فالإيمان في الشرع يتكون من هذه الأمور المأخوذة

من الأدلة، وليس هو تعريفا اصطلاحيا أو فكريا، وإنما هو مأخوذ من الأدلة، مستقرأ منها.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم تخريجه ص (١٠١).

ومعنى القول باللسان: أن ينطق بلسانه بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ينطق بذلك ويعلن به، ويدخل فيه أيضا كل ما ينطق به اللسان من العبادات القولية، كالتسبيح والتهليل، وتلاوة القرآن وذكر الله هذا كله قول باللسان، وهو إيمان.

وهو كذلك اعتقاد بالقلب، فلا يكفي النطق باللسان، فإن كان ينطق بلسانه ولا يعتقد بقلبه فهذا إيمان المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وكذلك من صدق بقلبه ولم ينطق بلسانه فهذا ليس بمؤمن؛ لأن المشركين والكفار يعتقدون بقلوبهم صدق الرسول - عليه الصلاة والسلام -، لكن أبوا أن ينطقوا بألسنتهم لغرض من الأغراض، إما لحمية على دينهم، كما أمر الرسول ﷺ كفار قريش أن يقولوا لا إله إلا الله فقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾(١) فهم أبوا أن يقولوا لا إله إلا الله ويشهدوا بها حمية لدينهم وعبادتهم للأوثان!!

فالتصديق بالقلب بدون نطق اللسان لا يكفي، وليس هو الإيمان، إنما هذا عند المرجئة، والمرجئة طائفة مخالفة لأهل السنة والجماعة، لا عبرة بقولها.

وكذلك من نطق بلسانه، وصدق بقلبه، ولم يعمل بجوارحه، فليس بمؤمن إلا عند المرجئة أيضا؛ لأن بعض المرجئة - وهم مرجئة الفقهاء - يقولون: الإيمان هو: القول باللسان والتصديق بالقلب. ولا يدخلون أعمال الجوارح في الإيمان.

والمرجئة أربع فرق:

أ - فرقة يقولون: الإيمان هو؛ القول باللسان فقط وهؤلاء هم الكرامية.

ب - وفرقة يقولون: الإيمان هو: التصديق بالقلب فقط، ولو لم ينطق، وهذا قول الأشاعرة.

---

(١) سورة ص آية: ٥.

ج - وفرقة يقولون: الإيمان: مجرد المعرفة بالقلب ولو لم يصدق، فإذا عرف بقلبه ولو لم يصدق، فإنه مؤمن وهذا قول الجهمية، وهم شر فرق المرجئة.

د - الفرقة الرابعة: الذين يقولون هو: القول باللسان، والاعتقاد بالقلب، وهؤلاء أخف فرق المرجئة، ولذلك يسمون بمرجئة الفقهاء.

أما جمهور أهل السنة والجماعة فإنه لا بد من هذه الحقائق في الإيمان:

قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فكلما عمل المرء طاعة زاد إيمانه، وكلما عمل معصية نقص إيمانه، فإذا أردت أن يزيد إيمانك فعليك بالطاعات، فذكر الله يزيد في الإيمان، وسماع القرآن يزيد في الإيمان؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢)﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾(٣) فدل على أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. كلما عصى الإنسان ربه نقص إيمانه، حتى ربما أدى ذلك إلى أن يكون إيمانه ضعيفا جدا، يكون إيمانه مثقال ذرة أو أقل، فيضعف الإيمان حتى

يكون قريبا من الكفر؛ كما قال تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾(٤).

فالمعاصي تنقص الإيمان، فمن خاف على إيمانه من النقص تجنب المعاصي، وإلا فليعلم أنها كلها على حساب الإيمان، كلما عمل معصية فإنه ينقص إيمانه بذلك حتى ربما لا يبقى منه إلا القليل، بل ربما يزول بالكلية؛ لأن بعض المعاصي يزيل الإيمان بالكلية، لا يبقى معه إيمان، مثل الشرك بالله والكفر به، وترك الصلاة، هذا يزيل الإيمان بالكلية.

فهذا هو تعريف الإيمان عند أهل السنة والجماعة.

---

(١) سورة الأنفال آية: ٢.

(٢) سورة مريم آية: ٧٦.

(٣) سورة المدثر آية: ٣١.

(٤) سورة آل عمران آية: ١٦٧.

٣- أركان الإيمان

الإيمان له أركان، يعني: دعائم وأعمدة يقوم عليها، لا يقوم بدونها، فإذا وجدت هذه الأركان، وهذه الدعائم قام الإيمان. وهذه الأركان بينها النبي ﷺ لما سأله جبريل قال: «أخبرني عن الإيمان، فقال: الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»(١) (٢).

هذه أركان الإيمان وهي ستة أركان:

الركن الأول: الإيمان بالله، وهذا يشمل التوحيد بأنواعه الثلاثة، فلا يصح الإيمان بالله إلا باعتقاد أنواع التوحيد الثلاثة.

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة، فتؤمن بأن لله ملائكة خلقهم لعبادته، وخلقهم لتنفيذ أوامره في مخلوقاته، منهم الموكل بالوحي، ومنهم الموكل بالقطر والنبات، ومنهم الموكل بالنفخ في الصور، ومنهم الموكل بقبض الأرواح عند الممات، ومنهم الموكل بالأجنة في البطون، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك،

ثم يرسل إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات؛ بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد»(٣) (٤).

---

(١) مسلم الإيمان (٨)، الترمذي الإيمان (٢٦١٠)، النسائي الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠)، أبو داود السنة (٤٦٩٥)، ابن ماجه المقدمة (٦٣)، أحمد (١/٥٢).

(٢) تقدم تخريجه ص ١٠١.

(٣) البخاري بدء الخلق (٣٠٣٦)، مسلم القدر (٢٦٤٣)، الترمذي القدر (٢١٣٧)، أبو داود السنة (٤٧٠٨)، ابن ماجه المقدمة (٧٦)، أحمد (١/٤٣٠).

(٤) متفق عليه من حديث ابن مسعود: البخاري: كتاب بدء الخلق، باب (٦)، رقم (٣٢٠٨)، (٦/٣٦٥). ومسلم: كتاب القدر، باب (١)، رقم (٢٦٤٣)، (٨/٤٠٦).

ومن الملائكة نوع موكل بحفظ أعمال بني آدم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾(١) يحفظون علينا أعمالنا، خيرها وشرها، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾(٢)، تابعون لابن آدم، يكتبون ما يصدر منه من قول أو فعل، أو قصد أو نية، يتعاقبون في الليل والنهار: ملائكة ينزلون يلازمون ابن آدم في الليل من صلاة العصر إلى صلاة الفجر، وينزل ملائكة آخرون من صلاة الفجر إلى صلاة العصر، ويجتمع ملائكة الليل وملائكة

النهار في صلاة الفجر يحضرونها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)﴾(٣) ويجتمعون في صلاة العصر، ويشهدونها مع المسلمين(٤) ولذلك صار لهاتين الصلاتين العظيمتين مزية عظيمة على غيرهما من الصلوات.

ومنهم ملائكة موكلون بالجنة لتنفيذ ما يأمرهم الله فيها من غرس الأشجار، وخدمة أهلها وغير ذلك.

وملائكة موكلون بالنار، وهم خزنتها، ومالك رئيسهم (رئيس الخزنة).

ومنهم حملة العرش؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾(٥)، والذين حول العرش هؤلاء من الملائكة أيضا، فالملائكة أصناف.

والسماوات مملوءة بالملائكة، وينزلون بأمر الله سبحانه وتعالى إلى الأرض لتنفيذ أوامره سبحانه وتعالى.

فيجب الإيمان بالملائكة، ومن جحد الملائكة فإنه كافر؛ لأنه جحد ركنا من أركان الإيمان وهو أمر معلوم من الدين بالضرورة.

(١) سورة الانفطار الآيات: ١٠-١٢.

(٢) سورة ق آية: ١٨.

(٣) سورة الإسراء آية: ٧٨.

(٤) كما في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة: البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب (١٦)، رقم (٥٥٥)، (٢/٤٥). ومسلم: كتاب المساجد، باب (٣٧)، رقم (٦٣٢)، (٣/١٤٣).

(٥) سورة غافر آية: ٧.

وفي الإيمان بالملائكة فائدة للإنسان وهي: أنه يتحفظ منهم، ويحسن القول والعمل؛ لأنهم يسجلون عليه ويحفظون عليه ما يصدر عنه، فعليه أن يستحيي منهم: فيتجنب المنكرات، ويتجنب إدخال الكلب أو الصورة في بيته؛ لأن الملائكة (أي: ملائكة الرحمة) لا تدخل بيتا فيه كلب ولا صورة(١) ولا يجوز للمسلم أن يفعل كما يفعل الغربيون والمتشبهون بهم من اتخاذ الكلاب في البيوت؛ لأن هذا يسبب ابتعاد الملائكة عن بيته.

الركن الثالث: الإيمان بكتب الله المنزلة، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾(٢)، أي: جميع الكتب، ما سمى الله منها: كالتوراة والإنجيل والزبور، وصحف إبراهيم وموسى،

والقرآن، وهو أعظمها. وما لم يسم الله منها، فنؤمن بجميع ما أنزل الله من الكتب، ولا يتم إيمان العبد مع جحدها وإنكارها.

الركن الرابع: الإيمان بجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، من أولهم إلى آخرهم، من سمى الله في القرآن والسنة، ومن لم يسم منهم، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾(٣)، ومن جحد نبيا واحدا فإنه كافر بالجميع.

والرسل هم؛ الواسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ الشرائع والأوامر والنواهي، والدعوة إلى الله عز وجل.

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر، يوم القيامة، يوم البعث، يوم يعيد الله الخلائق جميعا كما خلقهم أول مرة ويحشرهم جميعا في مكان واحد من أولهم إلى آخرهم، ويحاسبهم على أعمالهم، وتخرج لهم كتبهم التي كتبت عليهم في الدنيا، فالمؤمن يعطي كتابه بيمينه، والكافر يعطى كتابه بشماله وراء ظهره - والعياذ بالله - إهانة له.

(١) متفق عليه من حديث أبي طلحة: البخاري: كتاب بدء الخلق، باب (٧)، رقم (٣٢٢٥)، (٦/٣٧٥). ومسلم: كتاب اللباس، باب (٢٦)، رقم (٢١٠٦)، (٧/٣١٠).

(٢) سورة الشورى آية: ١٥.

(٣) سورة البقرة آية: ١٣٦.

وكل هذا وغيره مما يكون في اليوم الآخر: من وزن الأعمال، ومن الحوض، والصراط، والجنة والنار، وكل ما أخبر الله تعالى به أو أخبر به رسوله ﷺ مما يكون في اليوم الآخر، فالإيمان به ركن، لا يكون العبد مؤمنا مع التكذيب به.

ويدخل في ذلك - أيضا - ما يكون بعد الموت من عذاب القبر أو نعيمه، وغير ذلك مما يكون بعد الموت، إلى أن يستقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

فمن جحد البعث كفر بالله عز وجل؛ قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾(١) وكذلك من أنكر ما ثبت بالضرورة من أمور الآخرة، فإنه يكون كافرا، فمن أنكر الجنة أو النار، أو أنكر الحساب، أو إعطاء الصحائف، أو أنكر وزن الأعمال؛ فهو كافر، فلا بد من الإيمان باليوم الآخر، وبكل ما يجري فيه مما صح الخبر به عن الله جل وعلا أو عن رسوله ﷺ.

الركن السادس: الإيمان بالقدر، وهو: أن كل ما يجري في هذا الكون من خير أو شر، أو كفر أو إيمان، أو مرض أو صحة، أو غنى أو فقر، أو شدة أو يسر، فإنه بتقدير الله وعلمه. فالله علم كل شيء، وكتبه في اللوح المحفوظ، وشاءه، وخلقه وأوجده سبحانه وتعالى، فلا بد أن تؤمن بهذه الدرجات الأربع:

أ - العلم السابق من الله - عز وجل وعلا - بكل ما كان وما يكون.

ب - كتابة ذلك كله في اللوح المحفوظ.

ج - مشيئة الله لكل ما يجري وما يقع، وأنه لا يقع شيء إلا بمشيئة الله.

د - أن الله - جل وعلا - خلق كل شيء؛ قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾(٢) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾(٣).

---

(١) سورة التغابن آية: ٧.

(٢) سورة الزمر آية: ٦٢.

(٣) سورة الصافات آية: ٩٦.

فمن جحد القدر، أو جحد شيئا من مراتب القدر، فإنه لا يكون مؤمنا؛ لأنه جحد ركنا من أركان الإيمان الستة.

وهناك شعب غير هذه الأركان تسمى شعب الإيمان، قال ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»(١) (٢).

وهذه الشعب تختلف من حيث أهميتها فمنها ما يزول الإيمان بزواله ومنها ما ينقص الإيمان بزواله، ولذلك عد العلماء الأعمال من الإيمان فقالوا في تعريفه: ... وعمل بالجوارح ...

وهذه الأركان ذكرها جل وعلا في القرآن الكريم في آيات كثيرة: منها قوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾(٣)، ذكر في هذه الآية خمسة أركان، وذكر القدر في آية أخرى فقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)﴾(٤).

وكذلك ذكر الله هذه الأركان في قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ﴾(٥) فهذه أربعة أركان.

(١) البخاري الإيمان (٩)، مسلم الإيمان (٣٥)، الترمذي الإيمان (٢٦١٤)، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٠٥)، أبو داود السنة (٤٦٧٦)، ابن ماجه المقدمة (٥٧)، أحمد (٢/٤١٤).

(٢) أخرجه البخاري مختصرا (رقم ٩) ومسلم (رقم ٣٥)، واللفظ له.

(٣) سورة البقرة آية: ١٧٧.

(٤) سورة القمر آية: ٤٩.

(٥) سورة البقرة آية: ٢٨٥.

واليوم الآخر تكرر ذكره في القرآن بكثرة، بل إن الله جل وعلا يقرن الإيمان باليوم الآخر مع الإيمان به سبحانه وتعالى كثيرا، مثل قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾(١)

وذكر الله - جل وعلا - الإيمان بالرسل وبالكتب في قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾(٢)، فلا بد من الإيمان بهذا كله.

ولقد مدح الله - سبحانه وتعالى - المؤمنين الذين يؤمنون بهذه الحقائق، وأثنى عليهم، وذكر صفاتهم، وكثيرا ما يناديهم باسم الإيمان ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾(٣)، ثم يأمرهم أو ينهاهم،

كقوله: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣)﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧)﴾(٧)، إلى غير ذلك.

وتارة يذكر صفات من صفات المؤمنين، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾. ﴿يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤)﴾(١)، وهذه من أعظم الصفات التي خص بها المؤمنين.

(١) سورة المائدة آية: ٦٩.

(٢) سورة البقرة آية: ١٣٦.

(٣) سورة النساء آية: ١٣٥.

(٤) سورة النساء آية: ١٣٥.

(٥) سورة محمد آية: ٣٣.

(٦) سورة الحشر آية: ١٨.

(٧) سورة المائدة آية: ٨٧.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)﴾(٢).

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)﴾(٣).

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾(٤).

وقال تعالى واصفا لهم بولاية بعضهم بعضا: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾(٥).

قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾(٦) أي: ذكورا وإناثا، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾(٧): أي: كل واحد ولي للآخر بالمحبة والمناصرة والإعانة على الخير، فهو يتولى أموره، وينصره إذا أهين وأوذي، ويعينه إذا احتاج، ويذكره إذا نسي، ويحب له ما يحب لنفسه، فهو وليه، أي: بينهم ولاية، يعني: محبة ونصرة.

(١) سورة الأنفال الآيات: ٢-٤.

(٢) سورة المؤمنون الآيات: ١-١١.

(٣) سورة الحجرات آية: ١٥.

(٤) سورة النور آية: ٦٢.

(٥) سورة التوبة آية: ٧١.

(٦) سورة التوبة آية: ٧١.

(٧) سورة التوبة آية: ٧١.

قوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(١): أي: يأمر بعضهم بعضا بالمعروف وينهاه عن المنكر، ويأمرون غيرهم أيضا من الكفار والمشركين والمنافقين، يأمرونهم بالدخول في الإسلام، ويدعونهم إلى توحيد الله ﷻ وينهون عن المنكر من الشرك والكفر والمعاصي والمخالفات.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم صفات المؤمنين، ولذلك كان ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دليلا على ضعف الإيمان أو عدمه، كما قال ﷺ: «من رأى منكم منكرا؛ فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه،

وذلك أضعف الإيمان»(٢) (٣) وفي رواية: «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»(٤) (٥).

قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾(٦): أي يؤدونها في أوقاتها مع الجماعة، ويقيمونها ظاهرا وباطنا، وإقامتها ظاهرا تكون بأداء شروطها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، ويقيمونها باطنا بالخشوع وحضور القلب، وبهذه الإقامة مدحهم الله بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)﴾(٧)، إنما قال: ﴿وَيُقِيمُونَ﴾ ﴿الصَّلَاةَ﴾(١) ولم يقل: يصلون؛ لأنه ليس المقصود بالصلاة الصورة فقط؛ بل لا بد أن يقيموا الصلاة على حسب ما أمر الله سبحانه وتعالى، لا على حسب شهوة الإنسان ورغبته، فيصلي متى ما أراد، ويصلي كيفما أراد، بل لا بد أن يصلي كما أمر الله.

(١) سورة التوبة آية: ٧١.

(٢) مسلم الإيمان (٤٩)، الترمذي الفتن (٢١٧٢)، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٠٩)، أبو داود الصلاة (١١٤٠)، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢٧٥)، أحمد (٣/٥٤).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٤٩)

(٤) مسلم الإيمان (٥٠).

(٥) أخرجه مسلم (رقم ٥٠).

(٦) سورة التوبة آية: ٧١.

(٧) سورة المؤمنون الآيتان: ١، ٢.

قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾(٢): أي: زكاة أموالهم؛ لأنها قرينة الصلاة، ولا يمنعهم من إخراجها البخل والشح، وفي إعطائهم الزكاة مواساة للفقراء والمساكين.

قوله: ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾(٣): هذا عام في جميع ما أمر الله به، أو أمر به رسوله ﷺ. وفي هذا دليل على وجوب العمل بالسنة؛ لأن من لم يعمل بالسنة فإنه ليس مطيعا لرسول الله ﷺ. فالذي يقول: إنني لا أعمل إلا بالقرآن فقط!! هذا ليس مؤمنا بالرسول ﷺ بل ولا مؤمنا بالقرآن أيضا لأن الله أمر في القرآن باتباع السنة وطاعة الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ

الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)}(٤)، وقال تعالى: {مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠)}(٥).

قوله: {أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ}(٦): يعمهم الله برحمته، وإذا رحمهم سعدوا سعادة لا يشقون بعدها أبدا.

وهذه الصفات المذكورة للمؤمنين هي مضادة تماما لصفات المنافقين؛ كما قال تعالى عنهم في الآيات التي قبل هذه: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ} {الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨)}(١).

(١) سورة التوبة آية: ٧١.

(٢) سورة التوبة آية: ٧١.

(٣) سورة التوبة آية: ٧١.

(٤) سورة الحشر آية: ٧.

(٥) سورة النساء آية: ٨٠.

(٦) سورة التوبة آية: ٧١.

والإيمان منة من الله - جل وعلا - ومنحة؛ قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧)﴾(٢) فلذا لا يضعه إلا فيمن يستحقه؛ لأنه سبحانه وتعالى حكيم، يضع الأمور في مواضعها، فلا يضع الإيمان إلا فيمن يصلح له، فيمن به سبحانه على من يشاء، لا سيما من بذل الأسباب؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)﴾(٤).

ومن ثمرات الإيمان ما ذكره الله سبحانه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾(٥)، وذلك أنه إذا

دخل المؤمنون في الجنة وكان الآباء في منزلة، والأولاد في منزلة أخرى، فإن الله يجمع بينهم حتى تقر أعين بعضهم ببعض، وهذا هو معنى قوله: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾(٦)، فضلا منه سبحانه بسبب الإيمان، وذلك من تمام النعيم.

---

(١) سورة التوبة الآيتان: ٦٧، ٦٨.

(٢) سورة الحجرات آية: ١٧.

(٣) سورة محمد آية: ١٧.

(٤) سورة العنكبوت آية: ٦٩.

(٥) سورة الطور آية: ٢١.

(٦) سورة الطور آية: ٢١.

٤- مسائل في الإسلام والإيمان

المسألة الأولى الفرق بين الإسلام والإيمان

إذا ذكر الإسلام والإيمان في موضع واحد من النصوص الشرعية أو ذكر كل واحد منهما في موضع، فقد ذكر العلماء لذلك قاعدة وهي: "أنهما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا"،

أي: إذا اجتمعا في الذكر افترقا في المعنى، فكان الإسلام معناه الأعمال الظاهرة، والإيمان معناه الأعمال الباطنة، أعمال القلوب، كما ذكر في حديث جبريل، حيث فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، وفسر الإيمان بالأعمال الباطنة(١).

وإذا ذكر الإسلام منفردا دخل فيه الإيمان، وإذا ذكر الإيمان منفردا دخل فيه الإسلام؛ لأنه لا يصلح الإسلام إلا بالإيمان، ولا يصلح الإيمان إلا بالإسلام.

هذا هو الإيمان في الكتاب والسنة، ومذهب أهل السنة والجماعة.

المسألة الثانية ما يزول به الإيمان بالكلية وما ينقص به الإيمان

وهذه مسألة مهمة جدا. والإيمان يزول بالكلية بأمور، منها:

أ - الشرك بالله والكفر به، سواء كان الكفر بالجحود، أو التكذيب، أو بالشك، أو بالاستهزاء بما أنزل الله، أو بالرسول ﷺ أو بالقرآن أو بالسنة، أو بشعائر الدين، أو بفعل الكفر أو النطق

به، فهذه الأمور يزول بها الإيمان زوالا كليا، ولهذا تسمى نواقض الإيمان، وتسمى بخصال الردة.

والمراد بالشرك: الشرك الأكبر، وكذا الكفر الأكبر، ومثله النفاق الاعتقادي، فيزول الإيمان بالأقوال والأفعال والاعتقادات الكفرية والشركية.

---

(١) تقدم في ص ٨٨.

ب - ويزول أيضا بترك الصلاة؛ كما قال ﷺ: «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»(١) (٢) وقال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»(٣) (٤) ومراده بالكفر هنا: الكفر الأكبر؛ كما قال الله تعالى عن المجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣)﴾(٥) فالسبب الأول لدخولهم سقر هو تركهم الصلاة، فمن ترك الصلاة متعمدا فقد كفر، سواء كان جاحدا لوجوبها أم غير جاحد، أما من تركها جاهلا، أو تركها ناسيا، أو تركها نائما أو تركها بزوال عقله، فهؤلاء لا تشملهم نصوص الوعيد على تركها.

ج - كذلك يزول الإيمان بتعلم السحر وتعليمه.

د - ويزول الإيمان بادعاء علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

هـ - ويزول الإيمان بالحكم بغير ما أنزل الله، إذا اعتقد أنه أحسن من الحكم بما أنزل الله، أو مساو له، أو أنه مخير أن يحكم بهذا أو هذا، فهذا يكفر الكفر الأكبر الذي يخرج من الملة. وللإيمان نواقض كثيرة ذكرها العلماء في كتب الاعتقاد وكتب الفقه، وبعضهم أفردها بالتأليف.

أما المعاصي التي هي دون الشرك ودون الكفر، فهذه ينقص الإيمان بها ولا يزول بالكلية، وذلك كشرب الخمر والسرقة، والزنا، وأكل الربا من غير استحلال له، والكذب، والغيبة، والنميمة، فهذه كبائر ينقص الإيمان بها لكن لا يزول، ينقص حتى ربما وصل إلى مثقال ذرة أو أقل من ذلك كما سبق بيانه، ولكنه لا يخرج الإنسان من الدين؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)﴾(٢)، ثم قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾(٣) سماهم مؤمنين مع أنهم يقتل بعضهم بعضا، وقتل المؤمن بغير حق كبيرة من كبائر الذنوب، ومع هذا لم يخرجهم من الإيمان، فالكبائر التي دون الشرك تنقص الإيمان نقصا ظاهرا لكنها لا تخرج صاحبها من الدين، هكذا يقول أهل السنة.

---

(١) مسلم الإيمان (٨٢)، الترمذي الإيمان (٢٦٢٠)، أبو داود السنة (٤٦٧٨)، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٠٧٨)، أحمد (٣/٣٨٩)، الدارمي الصلاة (١٢٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٨٢)

(٣) الترمذي الإيمان (٢٦٢١)، النسائي الصلاة (٤٦٣)، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٠٧٩)، أحمد (٥/٣٤٦).

(٤) تقدم (ص ٩٤).

(٥) سورة المدثر آية: ٤٣.

خلافا لما يقوله الخوارج والمعتزلة والمرجئة:

فالخوارج والمعتزلة ذهبوا إلى أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار، وأنه خارج من الإيمان بمعصيته.

والمرجئة قالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب، ولا ينقص الإيمان بالمعاصي، وكلا القولين باطل مخالف للحق، وهما قولان على طرفي نقيض.

والحق هو الوسط، وهو مذهب السلف أهل السنة والجماعة، وهو أن يقال: مرتكب الكبيرة إن لم يكن مستحلا لها فإنه ينقص إيمانه، لكنه لا يخرج من الإيمان، فهو مؤمن ناقص الإيمان، أو يقال: هو مؤمن فاسق: مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، اجتمع فيه الإيمان والفسوق، هذا مذهب أهل السنة والجماعة في مرتكب الكبيرة، ولذلك شرع الله إقامة الحدود على مرتكب بعض الجرائم الكبيرة، فشرع حد الزنا والسرقة ونحو ذلك. وشرع القصاص من القاتل، وخير أولياء الدم بين أن يعفوا عن القصاص، أو يقتصوا، ولو كان مرتكب القتل كافرا بذلك لوجب قتله على كل حال، ولا يفوض الأمر إلى أولياء الدم؛ لأن المرتد يجب قتله، ولو عفى عنه الخلق جميعا، وإذا قتل القاتل فإنه يغسل ويكفن ويصلى عليه، ويدفن في مقابر المسلمين؛ لأنه مسلم.

(١) سورة النساء آية: ٤٨.

(٢) سورة الحجرات آية: ٩.

(٣) سورة الحجرات آية: ١٠.

كذلك الزاني إذا كان الزاني ثيبا يرجم بالحجارة حتى يموت، فإذا رجم ومات، فإنه يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين.

كذلك إذا كان الزاني بكرا فإنه يجلد ويعامل معاملة المسلمين، فلا ينفسخ نكاحه من زوجته، ولا يؤخذ ماله، لكنه مع إيمانه يكون فاسقا بزناه.

كذلك القاذف الذي يقذف الأبرياء بالزنا، هذا يجلد ثمانين جلدة، ويثبت عليه وصف الفسق، كما نص القرآن على ذلك: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤)﴾(١) لكن لا يعامل معاملة الكفار، وهذا يدل على أنه مسلم.

كذلك شارب الخمر يجلد، كما جلد النبي ﷺ في الخمر، وأجمع الصحابة بعد رسول الله ﷺ على أنه يجلد ثمانين جلدة، ويعامل معاملة المسلمين، لو مات فإنه يصلى عليه، وميراثه

يكون لأقاربه. ولو مات مرتدا أو كافرا لصار ماله فيئا لبيت المال، لا يرثه أقاربه.

وكل المعاصي تنقص الإيمان، ولكن بعضها ليس عليه حد في الدنيا، بل عليه وعيد من الله كالكذب، والغيبة والغش في البيع والشراء، وأكل الربا إذا لم يستحله، أما إن استحله فهو كافر حتى ولو لم يأكله؛ لأن استحلال المحرم ردة وكفر، لكن إذا أكله وهو يعتقد تحريمه، مثل أن تغلبه محبة المال والطمع، فهذا يكون فاسقا مرتكبا لكبيرة من كبائر الذنوب، لكن ليس عليه حد، وإنما عليه وعيد شديد حتى يتوب إلى الله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة النور آية: ٤.

فالمعاصي تنقص الإيمان إذا كانت دون الشرك، سواء كانت كبائر أم صغائر، والكبائر على قسمين: قسم رتب عليه الحدود، وقسم رتب عليه الوعيد، وليس فيه حد، والمعاصي في نقصها للإيمان تتفاوت: بعضها ينقص الإيمان نقصا كثيرا، وبعضها دون ذلك، وإذا تاب إلى الله - جل وعلا - توبة صحيحة غفر الله له ذنبه، ومحاه عنه؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا

آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠)}(١).

وبالله التوفيق.

---

(١) سورة الفرقان الآيات: ٦٨-٧٠.

الدرس السادس

بيان الكفر والشرك في القرآن الكريم

١- تمهيد

المناسبة بين هذا المبحث وما سبقه: أنا تكلمنا عن الإسلام والإيمان، فلا بد من الكلام عما يضادهما ويخالفهما من الكفر والشرك؛ لأنه لا يكفي أن يعرف الإنسان الحق فقط؛ بل لا بد أن يعرف الحق ويعرف ما يضاده، لئلا يقع فيه، فما وقع كثير من

الناس في الكفر والشرك إلا بسبب الجهل بهما، وعدم العناية بمعرفتهما.

والله - جل وعلا - كما أنه بين الإسلام والإيمان، ووضحهما لعباده، كذلك بين الكفر والشرك من أجل الحذر منهما واجتنابهما، ولأن الكفر والشرك وقع فيهما سوء فهم وخطأ من كثير من الناس، بل وكثير ممن يدعون العلم يظنون أن الكفر هو مجرد الجحود والتكذيب فقط، مع أن الجحود والتكذيب نوعان من أنواع الكفر، كما فسروا الشرك بأنه الشرك في الربوبية أو قصروه على عبادة الأصنام.

وكثير ممن يدعون العلم غلطوا في معنى الشرك، فقالوا: الشرك هو: الاعتقاد بأن أحدا يخلق ويرزق ويدبر مع الله سبحانه وتعالى، فيقصرونه بذلك على الشرك في الربوبية فقط، مع أن الشرك الخطير الذي جاءت الرسل بإنكاره هو الشرك في الألوهية، في توحيد العبادة، وليس مقصورا على الشرك في الربوبية بل إن الشرك في الربوبية لا يكاد يقع من أحد، فغالب الأمم معترفون بتوحيد الربوبية، وإنما حصل الخطأ والغلط والمخالفة في توحيد العبادة.

وبعضهم فسر الشرك بأنه: عبادة الأصنام فقط، ولا يجعل منه عبادة الأولياء والصالحين، وهذا غلط؛ فإن كثيرا من المشركين لا يعبدون الأصنام، وإنما يعبدون الأولياء والصالحين ويتخذون قبورهم مساجد، ويستغيثون بهم، إلى غير ذلك.

٢- بيان معنى الكفر لغة وشرعا

الكفر في اللغة يطلق ويراد به: ستر الشيء، كفر كذا، أي: ستره، ومنه سمي الزارع كافرا؛ لأنه يخفي البذور في الأرض ويدفنها، فالكفر في اللغة هو الستر.

وقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾(١) أن المراد بالكفار: الزراع، والمشهور أن المراد بالكفار: أصحاب الكفر الملي: وأنه لا يبغض الصحابة إلا كافر، هذا هو المشهور.

وفي قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾(٢)، قالوا: المراد بالكفار هنا الزراع، يعجبون بالنبات الذي ينبته الله سبحانه وتعالى، وهذا كفر لغوي.

أما الكفر في الشرع فهو: ضد الإيمان، وهو: جحد الدين الحق وستره، سمي كفرا؛ لأن فيه سترا للحق وجحدا له.

٣- أقسام الكفر وأنواعه

الكفر قسمان في الأصل: كفر أكبر مخرج من الملة، وكفر أصغر لا يخرج من الملة، والكفر الأكبر أنواع كثيرة منها:

أولا: كفر الجحود: وذلك بأن يكون عندهم معرفة للحق في قلوبهم ويقين به، لكن يجحدونه ظاهرا، إما عنادا أو تكبرا، وإما لأجل طمع في رئاسة أو غير ذلك، وعلى هذا غالب الكفار؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)﴾(٤)، فأخبر أنهم استيقنتها أنفسهم، ولكن جحدوها ظلما وعلوا، أي من أجل الظلم والعلو على الناس، فهذا يسمى كفر الجحود.

(١) سورة الفتح آية: ٢٩.

(٢) سورة الحديد آية: ٢٠.

(٣) سورة الأنعام آية: ٣٣.

(٤) سورة النمل آية: ١٤.

وقال موسى - عليه الصلاة والسلام - لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢)﴾(١) فعلم فرعون أن ما جاء به موسى هو الحق، ولكنه يتظاهر بإنكاره ظلما وعلوا، وإبقاء على ملكه كما يزعم، ولهذا قال له الملأ: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ﴾(٢) من أجل هذا جحد الحق فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾(٣)، فهو يكذب في هذا؛ لأن العقلاء يقرون جميعا بأن هذا الخلق له خالق مدبر، وأن فرعون لم يخلق شيئا، ولم يدبر شيئا، وليس له ربوبية، وإنما الربوبية للخالق سبحانه وتعالى، ولكن الذي حمله على هذا: الكبر والإبقاء على ملكه، وهذا كفر الجحود.

ثانيا: كفر التكذيب، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ

مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨)﴾(٤)، سماهم كافرين بسبب أنهم كذبوا بآيات الله تعالى، وكذبوا بالحق لما جاءهم، ولما جاءهم رسول الله ﷺ كذبوه وقالوا: ساحر كذاب، كذبوا محمدا ﷺ كما كذب غيرهم من الأمم رسلهم؛ قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥)﴾(٥)، وقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣)﴾(٦)، وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١)﴾(٧) وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠)﴾(٨) هذا كفر التكذيب.

---

(١) سورة الإسراء آية: ١٠٢.

(٢) سورة الأعراف آية: ١٢٧.

(٣) سورة القصص آية: ٣٨.

(٤) سورة العنكبوت آية: ٦٨.

(٥) سورة الشعراء آية: ١٠٥.

(٦) سورة الشعراء آية: ١٢٣.

(٧) سورة الشعراء آية: ١٤١.

(٨) سورة الشعراء آية: ١٦٠.

ثالثا: كفر الشك والظن، بأن يكون شاكا فيما جاءت به الرسل ويظن أنهم على غير حق، وذلك كما في قوله سبحانه وتعالى

في قصة الرجلين: ﴿۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾(١) يعني: بستانه الذي فيه الأشجار والأنهار فأعجب به، ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾(٢): شك في اليوم الآخر، وشك في البعث، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾(٣) يقول: إن بعثت - يعني: هذا احتمال عنده - فأجد في الآخرة أحسن من هذه؛ لأن الله تعالى ما أعطاني هذه الجنة في الدنيا إلا لكرامتي عليه، ومنزلتي عنده، فإذا بعثت، على فرض وجود بعث بعد الموت، إذا بعثت سأجد خير منقلب عند الله، وهذا منه شك والعياذ بالله في البعث، وهذا كفر كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧)﴾(٤)، قال له: ﴿أَكَفَرْتَ﴾(٥)؛ لأن من شك أو ظن وبنى عقيدته على الظن والشك فهو كافر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر وغيره من أركان الإيمان لا بد فيه من اليقين، وإلا يكون الإنسان كافرا.

رابعا: كفر الإعراض، أي: الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣)﴾ (٦)، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾(٧) سماهم كافرين لإعراضهم عما أنذروا به، فهم معرضون لا يهتمون، لا يتعلمون الدين ولا يعملون به، ولو تعلموا لا يعملون به، هذا هو كفر الإعراض.

---

(١) سورة الكهف الآيات: ٣٢-٣٥.

(٢) سورة الكهف الآيتان: ٣٥، ٣٦.

(٣) سورة الكهف آية: ٣٦.

(٤) سورة الكهف آية: ٣٧.

(٥) سورة الكهف آية: ٣٧.

(٦) سورة الأحقاف آية: ٣.

(٧) سورة الأحقاف آية: ٣.

خامسا: كفر النفاق - والعياذ بالله - النفاق الاعتقادي. فالمنافقون كفار يظهرون الإسلام لكنهم كفار في قلوبهم وعقائدهم، يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، والله سبحانه وتعالى بين حال المنافقين فقال سبحانه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۘ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ

وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾(١) آمنوا بألسنتهم وكفروا بقلوبهم، والعياذ بالله. ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣)﴾(٢) هذا هو النفاق، أن يتظاهر الإنسان بالإسلام ويبطن في قلبه الكفر، وهو إنما يظهر الإيمان نفاقا من أجل أن يعيش مع المؤمنين؛ لأنه لا يقدر على مجابهة المؤمنين، ولا يقدر على مفارقتهم، فاضطر إلى أن ينافق، والعياذ بالله.

٤- أقسام النفاق

والنفاق ينقسم إلى قسمين: نفاق اعتقادي، وهو كفر، ونفاق عملي ليس اعتقاديا، يكون الإنسان في قلبه مؤمنا وفي أغلب أعماله مؤمنا، لكن يقول بعض أقوال المنافقين، أو يتصف ببعض صفاتهم، فهذا نفاق عملي، وهو نفاق أصغر، لكن إذا كثر في الإنسان ربما يجره إلى النفاق الأكبر؛ قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»(١) (٢)

وفي رواية: «وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»(٣) (٤) وفي رواية زيادة: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم»(٥) (٦).

---

(١) سورة المنافقون الآيات: ١-٣.

(٢) سورة المنافقون آية: ٣.

وقد يصدر من بعض المؤمنين بعض صفات النفاق، فيكون فيهم نفاق أصغر، ويجتمع فيهم إيمان ونفاق، كما قال ﷺ «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها»(٧) (٨).

فقوله: «كان منافقا خالصا»(٩) يدل على أن خصال النفاق إذا كثرت ربما أخرجته إلى النفاق الأكبر، فيكون منافقا خالصا، فإذا كان فيه واحدة منها فلا يكون منافقا خالصا وإنما يكون فيه شيء من النفاق، وعلى كل حال فالنفاق أمره خطير جدا.

هذا هو الكفر، وهذه بعض أنواعه المهمة، كما بينها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم.

فأما الكفر الأصغر فهو بعض الذنوب التي سماها رسول الله ﷺ كفرا ولم تصل إلى الكفر الأكبر، مثل قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي

كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»(١٠)، فالمراد بالكفر هنا: الكفر الأصغر؛ لأن قتل المؤمن كبيرة من كبائر الذنوب، لكنه لا يخرج به صاحبه من الإسلام، لكن عنده كفر أصغر؛ والدليل على ذلك أن الله -جل وعلا- قال: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)﴾(١) ثم قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾(٢).

(١) البخاري الإيمان (٣٣)، مسلم الإيمان (٥٩)، الترمذي الإيمان (٢٦٣١)، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٢١)، أحمد (٢/٣٥٧).

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة، وقد تقدم تخريجه.

(٣) البخاري الإيمان (٣٤)، مسلم الإيمان (٥٨)، الترمذي الإيمان (٢٦٣٢)، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٢٠)، أبو داود السنة (٤٦٨٨)، أحمد (٢/١٨٩).

(٤) تقدم تخريج هذا الجزء من حديث عبد الله بن عمرو المتفق عليه.

(٥) مسلم الإيمان (٥٩).

(٦) أخرج هذه الزيادة مسلم من حديث أبي هريرة: كتاب الإيمان، باب (٢٥)، رقم (٥٩/١٠٩)، (١/٢٣٦).

(٧) البخاري الإيمان (٣٤)، مسلم الإيمان (٥٨)، الترمذي الإيمان (٢٦٣٢)، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٢٠)، أبو داود السنة (٤٦٨٨)، أحمد (٢/١٨٩).

(٨) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو، وقد تقدم تخريجه.

(٩) البخاري الإيمان (٣٤)، مسلم الإيمان (٥٨)، الترمذي الإيمان (٢٦٣٢)، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٢٠)، أبو داود السنة (٤٦٨٨)، أحمد (٢/١٨٩).

(١٠) البخاري العلم (١٢١)، مسلم الإيمان (٦٥)، النسائي تحريم الدم (٤١٣١)، ابن ماجه الفتن (٣٩٤٢)، أحمد (٤/٣٥٨)، الدارمي المناسك (١٩٢١).

فأخبر عن المقتتلين بأنهم مؤمنون وأنهم إخوة، فدل على أن القتل بغير حق، وإن كان كبيرة وجريمة عظيمة إلا أنه لا يخرج القاتل من الإيمان إلى الكفر.

وكما في قوله ﷺ: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»(٣)(٤) «على الميت»(٥)، سماها من خصال الجاهلية، والجاهلية كفر، ولكن لو كان فيه خصلة منها فلا يقال: إنه كافر الكفر المخرج من الملة، وإنما يقال: هذا من الكفر الأصغر.

فليس كل من كان فيه شيء من أمور الجاهلية، ويكون كفرا أصغر؛ كما قال ﷺ لبعض أصحابه: «إنك امرؤ فيك جاهلية»(٦)، وهذا صحابي جليل، لكن لما قال كلمة عير بها أخاه فقال له: يا ابن السوداء، قال ﷺ: «أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية»(٧)(٨) فدل على أن خصال الجاهلية هي نوع من الكفر لكنها لا تخرج من الملة، لكنها خطيرة؛ لأن تسميتها كفرا يدل على خطورتها.

(١) سورة الحجرات آية: ٩.

(٢) سورة الحجرات آية: ١٠.

(٣) مسلم الجنائز (٩٣٤)، ابن ماجه ما جاء في الجنائز (١٥٨١)، أحمد (٥/٣٤٣).

(٤) أخرجه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري: كتاب الجنائز، باب (١٠)، رقم (٩٣٤) (٣/٤٧٥).

(٥) مسلم الإيمان (٦٧)، الترمذي الجنائز (١٠٠١)، أحمد (٢/٢٩١).

(٦) البخاري الإيمان (٣٠)، مسلم الأيمان (١٦٦١)، أبو داود الأدب (٥١٥٧)، أحمد (٥/١٦١).

(٧) البخاري الإيمان (٣٠)، مسلم الأيمان (١٦٦١)، أبو داود الأدب (٥١٥٧)، أحمد (٥/١٦١).

(٨) متفق عليه بنحوه من حديث المعرور بن سويد: البخاري: كتاب الإيمان، باب (٢٢)، رقم (٣٠)، (١/١١٥) ومسلم: كتاب الإيمان، باب (١٠)، رقم (١٦٦١)، (٦/٨٣٤).

ومن الكفر الأصغر: قوله ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»(١)(٢) "كفر" يعني: الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة، و"أشرك" الشرك الأصغر.

٥- معنى الشرك

وأما الشرك فهو: "صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله ".

والعبادة أنواع كثيرة: كالدعاء، والاستعانة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، والخوف، والرغبة، والرهبة، والرجاء.

وهي عبادات قولية، وعبادات فعلية، وعبادات قلبية.

فالخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، والخشية، والتوكل، والمحبة، هذه عبادات قلبية.

والصلاة والصيام عبادات بدنية، والذكر والدعاء عبادات قولية.

والقول الجامع في معنى العبادة أنها: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، الظاهرة والباطنة.

فمن صرف شيئا من أنواع العبادة لغير الله فإنه يكون مشركا بالله عز وجل.

(١) الترمذي النذور والأيمان (١٥٣٥)، أبو داود الأيمان والنذور (٣٢٥١)، أحمد (٢/٦٩).

(٢) أخرجه من حديث ابن عمر: أبو داود: كتاب الإيمان، باب (٥)، رقم (٣٢٥١)، (٣/٣٧١). والترمذي: كتاب النذور، باب (٩)، رقم (١٥٣٩)، (٤/١١٠)، واللفظ له.

٦- أقسام الشرك وأنواعه

والشرك في الأصل نوعان: شرك أكبر، وشرك أصغر.

والشرك الأكبر أنواع كثيرة ذكرها الله -جل وعلا- في القرآن، فمن دعا غير الله فهو مشرك؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨)﴾(١)، وقال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾(٢) أي: مخلصين له الدعاء ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤)﴾(٣) فدعاء الأولياء والصالحين والجن، والاستنجاد بهم عند الشدائد شرك أكبر، وإن كان هذا الداعي لهم يصلي ويصوم ويدعي الإسلام، فإنه بدعائه لغير الله تحبط أعماله.

وكذلك الصلاة لا تصرف إلا لله؛ قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾(٤)

وكذلك الذبح: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢)﴾(٥) قرن النحر مع الصلاة، فدل على أنهما من أعظم أنواع العبادة، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾(٦) فالصلاة والذبح عبادتان عظيمتان.

الصلاة عبادة بدنية، والذبح عبادة مالية، والزكاة عبادة مالية.

أما الحج فعبادة بدنية وعبادة مالية، يجمع بينهما.

---

(١) سورة الجن آية: ١٨.

(٢) سورة غافر آية: ١٤.

(٣) سورة غافر آية: ١٤.

(٤) سورة الكوثر آية: ٢.

(٥) سورة الكوثر آية: ٢.

(٦) سورة الأنعام الآيتان: ١٦٢، ١٦٣.

ومن العبادات: التوكل؛ قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣)﴾(١) قصر التوكل على الله جل وعلا؛ لأن تقديم المعمول يدل على الاختصاص.

فقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾(٢) أي: لا على غيره، فالتوكل عبادة، ومن توكل على غير الله فقد أشرك.

وكذلك الخشية والخوف؛ قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥)﴾(٣) وقال سبحانه: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)﴾(٤) فالخوف والخشية عبادتان يجب أن تكونا لله عز وجل.

والنذر عبادة، فمن نذر للقبر، أو نذر للميت، أو نذر للجن، يكون مشركا؛ لأنه صرف نوعا من العبادة لغير الله ﷻ وقد قال ﷺ: «لعن الله من ذبح لغير الله»(٥)، وكذلك حديث الرجلين اللذين أخبر عنهما النبي ﷺ فيما روي عنه أنه قال: «(دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب) قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟! قال: (مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد (أي لا يتعداه أحد) حتى يقرب له شيئا، فقالوا لأحدهما: قرب، قال: ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله ﷻ (امتنع عن الشرك)، فقتلوه، فدخل الجنة، وقالوا للآخر: قرب، قال: ما عندي شيء أقربه، قالوا؛ قرب ولو ذبابا، فقرب ذبابا فخلوا سبيله، فدخل

النار»(٦)؛ لأنه وافقهم على التقرب لغير الله ﷻ ولم يمانع، فالعبرة ليست بالذباب، وإنما العبرة بالموافقة على الكفر.

---

(١) سورة المائدة آية: ٢٣.

(٢) سورة المائدة آية: ٢٣.

(٣) سورة آل عمران آية: ١٧٥.

(٤) سورة البقرة آية: ٤٠.

(٥) مسلم الأضاحي (١٩٧٨)، النسائي الضحايا (٤٤٢٢)، أحمد (١/١١٨).

(٦) روي مرفوعا مرسلا من حديث طارق بن شهاب والصواب وقفه على سلمان الفارسي كما رواه: أحمد في الزهد ص ٨٤، وأبو نعيم في الحلية (١/٢٠٣)، وابن أبي شيبة في المصنف: كتاب السير، باب (٨٥) رقم (٣٣٠٢٨)، (٦/٤٧٧).

ومن أنواع الشرك الأكبر: الشرك في الطاعة، في تحليل الحرام وتحريم الحلال؛ قال جل وعلا: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾(١)، فمن أطاع مخلوقا في تحليل الحرام وتحريم الحلال، وهو يعرف أنه حرم الحلال أو أحل الحرام، فوافقه على ذلك فإنه يكون مشركا، الشرك الأكبر، وهذا هو شرك الطاعة، أما إذا كان لا يعلم، بل

أطاعه ثقة به وهو لا يعلم أنه حلل الحرام أو حرم الحلال، فهذا لا يعد من الشرك الأكبر.

ومن أنواع الشرك الأكبر: السحر، فالساحر مشرك؛ لأنه أطاع الشيطان، وكذلك الكاهن؛ لأنه أطاع الشياطين وخضع لهم.

ومن ذلك الذبح لغير الله لقصد العلاج، كما يفعلون عند السحرة يأمرونهم بأن يذبحوا من أجل شفاء أمراضهم، فإذا استجاب وذبح لغير الله يكون مشركا الشرك المخرج من الملة؛ لأن الله لم يجعل الدواء فيما حرم، بل هذا حرام شديد التحريم، وأعظم المحرمات الشرك، فإذا وافق على الذبح عند السحرة طمعا في الشفاء فإنه يكون مشركا خارجا من الملة، ولو ذبح شيئا يسيرا ولو دجاجة، فضلا عن الذي يذبح الأغنام أو الإبل أو البقر فالذبح لغير الله لأي سبب كان: إما لشفاء المرض، أو نزول المطر، كما يفعل بعض الناس إذا أجدبوا يذبحون لبعض الأحجار أو يذبحون للجن، يطلبون نزول المطر بهذا؛ فهذا هو الشرك الأكبر.

النوع الثاني من أنواع الشرك: الشرك الأصغر الذي لا يخرج من الملة.

وهو نوعان: شرك ظاهر، وشرك خفي.

---

(١) سورة التوبة آية: ٣١.

النوع الأول: الشرك الظاهر: الشرك في الألفاظ، كأن يقول: لولا الله وفلان، لولا الله وأنت، ما شاء الله وشئت! وهذا شرك أصغر وهو شرك في اللفظ ولو لم يكن يعتقده بقلبه.

وكذلك الحلف بغير الله، فهو شرك أصغر؛ لقوله ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»(١)(٢) شك الراوي هل قال رسول الله "كفر" أو قال "أشرك" على كل حال هو إما شرك أصغر أو كفر أصغر، إلا إذا كان الحالف يعظم المحلوف به كما يعظم الله فهذا من الشرك الأكبر، أما إذا كان لا يعظمه مثلما يعظم الله فإن هذا يكون شركا أصغر.

والحلف بغير الله: كالحلف بالأمانة، والحلف بالرسول، والحلف بالكعبة، والحلف بحياة شخص، والحلف بأي مخلوق من مخلوقات الله عز وجل. كل هذا من الشرك، ولهذا قال ﷺ: «من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت»(٣)(٤).

النوع الثاني: الشرك الخفي الذي يكون في القلب ولا يراه الناس ولا يسمعونه، إنما هو شيء يقوم بالقلب، وذلك شرك الرياء: أن يصلي من أجل أن يمدحه الناس، أو يتصدق من أجل أن يمدحه الناس. فهذا شرك لا يعلمه إلا الله جل وعلا.

وفي هذا النوع قال ﷺ: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من فتنة المسيح الدجال؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: الشرك الخفي، يقوم الرجل، فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل»(٥) (٦).

(١) الترمذي النذور والأيمان (١٥٣٥)، أبو داود الأيمان والنذور (٣٢٥١)، أحمد (٢/٦٩).

(٢) أخرجه من حديث ابن عمر؛ أبو داود والترمذي، وقد تقدم تخريجه.

(٣) البخاري الشهادات (٢٥٣٣)، مسلم الأيمان (١٦٤٦)، الترمذي النذور والأيمان (١٥٣٤)، أبو داود الأيمان والنذور (٣٢٤٩)، أحمد (٢/١١)، مالك النذور والأيمان (١٠٣٧)، الدارمي النذور والأيمان (٢٣٤١).

(٤) أخرجه البخاري من حديث ابن عمر: كتاب الشهادات، باب (٢٦)، رقم (٢٦٧٩)، (٥/٣٥٣)، ومسلم (رقم ١٦٤٦).

(٥) ابن ماجه الزهد (٤٢٠٤)، أحمد (٣/٣٠).

(٦) أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري: كتاب الزهد، باب (٢١)، رقم (٢٤٠٤)، (٤/٤٧٠).

فمن تصدق يرائي، أو صلى يرائي، أو تعلم العلم يرائي، أو ذكر الله يرائي، فإنه قد أشرك بالله شركا أصغر، وهو الشرك الخفي الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

قال ﷺ «الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل»(١)(٢) وهذا هو الذي خافه الصحابة -رضي الله عنهم- على أنفسهم، وهم الصحابة!

٧- وجوب الخوف والتحرز من الشرك وبيان عظيم خطره في الدنيا والآخرة

وكلما خاف الإنسان من الشرك اشتد تحرزه منه، وكلما أمن الإنسان من الشرك وقع فيه، فعلى الإنسان أن لا يزكي نفسه ويقول: أنا ما عندي شرك أكبر. نعم، لكن الشرك الأصغر محبط للعمل الذي يخالطه؛ إذ قد تعمل الأعمال ولا أجر لك فيها.

فمن صلى يرائي فلا أجر له، ومن تصدق يرائي فلا أجر له، ومن جاهد يرائي فلا أجر له، ومن تعلم العلم يرائي فلا أجر له، بل يكون آثما، فالإنسان يجب أن يخاف من الشرك الأكبر ومن الشرك الأصغر.

ولهذا إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وهو إمام الموحدين الذي كسر الأصنام بيده، وامتحن بسبب ذلك حتى ألقي في النار يقول في دعائه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ﴾(٣) فلم يأمن إبراهيم على نفسه من الفتنة، وأن يقع في الشرك الأكبر (عبادة الأصنام)، فمن يأمن البلاء بعد إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-؟!

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في النونية:(٤).

---

(١) أحمد (٤/٤٠٣).

(٢) أخرجه مرفوعا ابن حبان في صحيحه من حديث عائشة، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره لآية البقرة (٢٢) ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ عن ابن عباس مرفوعا.

(٣) سورة إبراهيم الآيتان: ٣٥، ٣٦.

(٤) انظر: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، المشهورة بالنونية للإمام ابن القيم (٢/٢٦٣) ابن عيسى الشقري.

«والشرك فاحذره: فشرك ظاهر» «ذا القسم ليس بقابل الغفران»

«وهو اتخاذ الند للرحمن أيا» «كان من حجر ومن إنسان»

«يدعوه أو يرجوه ثم يخافه» «ويحبه كمحبة الديان»

وأما الشرك الخفي فهو كما بينه النبي ﷺ بقوله: «أخوف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر، فسئل عنه، فقال: الرياء»(١)(٢) نسأل الله العافية.

وهذا الرياء آفة خطيرة جدا، وقد بين العلامة ابن رجب رحمه الله في شرح الأربعين: أن الرياء إذا صاحب العمل من أصله

فإنه لا يقبل، أما إذا كان العمل أصله خالصا لله، ثم طرأ عليه الرياء في أثناء العمل: فإن دفعه الإنسان ورجع إلى الإخلاص لم يضره، وإن استمر معه: ففيه خلاف: هل يثاب على أصل العمل، أو يبطل عمله كله؟ قولان عند أهل العلم(٣) فهذا يدل على خطورة الرياء، وقد قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾(٤).

ثم لنعلم أن الشرك اليوم قد خفي أمره على كثير من الناس، وسمي بغير اسمه، فهؤلاء الذين يعبدون الأموات والأضرحة: ويطوفون بها، ويستغيثون بها، ويدعونها من دون الله!! إذا قيل لهم: هذا هو الشرك الأكبر، قالوا: لا، هذا محبة للصالحين، وهذا توسل إلى الله -سبحانه وتعالى- من أجل أن يشفعوا لنا عنده؛ لأنهم أصحاب منزلة ومكانة عند الله، ونحن أناس مذنبون، فهم يتوسطون لنا عند الله -جل وعلا-، ونحن نعتقد أنهم لا يخلقون ولا يرزقون، ولا يدبرون مع الله، لكننا اتخذناهم وسائط بيننا وبين الله!! فيسمون هذا الشرك الأكبر بغير اسمه، وهذا هو فعل المشركين الأولين؛ كما بينه الله في القرآن، لا جدال فيه، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا﴾ ﴿يَنفَعُهُمْ

وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾(١)، ما قالوا يخلقون، ويرزقون ويحيون ويميتون، ويدبرون؛ بل قالوا: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾(٢). وفي آية أخرى يقول جل وعلا: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾(٣).

---

(١) أحمد (٥/٤٢٩).

(٢) أخرجه بمعناه ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري، وقد تقدم تخريجه.

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب.

(٤) سورة الكهف آية: ١١٠.

ما عبدوهم لأنهم يخلقونهم أو يرزقونهم، أو يحيون أمواتهم، أو أنهم يشفون مرضاهم؛ لأنهم يعتقدون أن هذا لا يقدر عليه إلا الله جل وعلا، ولكنهم اتخذوهم أولياء ليقربوهم إلى الله زلفى.

فالأمر خطير جدا؛ لأن الشرك الآن سمي بغير اسمه تلبيسا على الناس، وأكثر الناس لا يرجعون إلى القرآن، مع أن القرآن وضحه وبينه، لكنهم يرجعون إلى أقوال علمائهم المضلين، وأئمتهم

الضالين، ويتخذون أقوالهم نصوصا يستدلون بها، ولا يستدلون بكلام الله ﷻ وهو واضح في الأمر لا خفاء فيه.

نسأل الله العافية والسلامة. فهذا هو الشرك بعينه.

والله جل وعلا -في القرآن العظيم- حذر من الكفر، وحذر من الشرك وبين عاقبة أهلهما في الدنيا والآخرة، فتوعد الكافرين، وأعد لهم سعيرا؛ كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)﴾(٤)، هذا وعيد الكافرين، وهذه عاقبتهم -والعياذ بالله- في الدار الآخرة.

---

(١) سورة يونس آية: ١٨.

(٢) سورة يونس آية: ١٨.

(٣) سورة الزمر الآيتان: ٢، ٣.

(٤) سورة الأحزاب الآيات: ٦٣-٦٨.

أما عقوبتهم في الدنيا فإن الله أباح للمسلمين دماءهم وأموالهم حتى يدخلوا في الإسلام؛ قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها؛ عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله ﷻ»(١)(٢) فالكافر مهدر الدم، حلال المال، حتى يدخل في الإسلام الذي شرعه الله لعباده، وخلق الخلق من أجله، وهو خالد مخلد في النار إذا مات على الكفر، والعياذ بالله.

وقال جل وعلا عن النار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾(٣)، وقال عن مصير الكافرين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١)﴾(٤) هؤلاء هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها، وبقوا على كفرهم وعنادهم ومعاداتهم للرسل، هذه عاقبتهم عند الله سبحانه وتعالى.

وأما الشرك فإن الله -سبحانه وتعالى- حذر منه غاية التحذير، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ

الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢)﴾(٥) وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥)﴾(٦)، فالله -جل وعلا- يقول لرسوله ولمن قبله من الرسل: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾(٧) وهذا من باب الفرض، وإلا فالرسول ﷺ وإخوانه من النبيين عصمهم الله من الشرك، لكن هذا من باب تحذير الناس، وأن الرسول لو وقع منه ذلك لحبط عمله، فكيف بغيره؟! لا شك أن حبوط عمل غيرهم من باب أولى؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨)﴾(١).

---

(١) البخاري الإيمان (٢٥)، مسلم الإيمان (٢٢).

(٢) متفق عليه من حديث عمر: البخاري: كتاب الزكاة، باب (١)، رقم (٠١٣٩٩)، (٣/٣٣١) ومسلم: كتاب الإيمان، باب (٨) رقم (٢٠)، (١/١٥٠).

(٣) سورة البقرة آية: ٢٤.

(٤) سورة الأعراف آية: ٤٠، ٤١.

(٥) سورة المائدة آية: ٧٢.

(٦) سورة الزمر آية: ٦٥.

(٧) سورة الزمر آية: ٦٥.

فإذا كان أي نوع من أنواع الشرك الأكبر يحبط الأعمال كلها، وإذا كان الشرك - أيضا - يحرم الجنة على المشرك، ويكون مأواه النار، مقره ومسكنه أبد الآباد، والعياذ بالله، وإذا كان لا يغفره الله لمن مات عليه فهذا يدل على خطورة الشرك، وأن الإنسان يخاف منه غاية الخوف، ويحذر منه غاية الحذر.

٨- الفرق بين الشرك والكفر

بينهما عموم وخصوص مطلق، فكل مشرك كافر، وليس كل كافر مشركا؛ لأن الكفر قد يكون بالجحود والتكذيب والتعطيل، فهذا يسمى صاحبه كافرا فقط، ولا يسمى مشركا؛ لأنه لا يؤمن بالرب سبحانه وتعالى، أما المشرك فإنه يؤمن بالرب، لكنه يعبد معه غيره، هذا هو الفرق بين المشرك والكافر.

٩- نواقض الإسلام

الإنسان قد يسلم وقد يؤمن ويترك الشرك والكفر، لكن تطرأ عليه الردة، بأن يرتكب ناقضا من نواقض الإسلام، ومعرفة هذه النواقض مهمة جدا. فمن ارتكب ناقضا من نواقض الإسلام؛

فإنه يوصف بـ "المرتد"، وهو: الذي يكفر بعد إسلامه. وينكص على عقبيه، ويرتد عن دينه.

والله - جل وعلا - حذر من الردة بعد الإيمان؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥)﴾(٢).

---

(١) سورة الأنعام آية: ٨٨.

(٢) سورة المائدة آية: ٥.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)﴾(١) صار مثل الكفار الأصليين.

قوله: ﴿أَصْحَابُ النَّارِ ۖ﴾(٢) أي: الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه، والعياذ بالله ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)﴾(٣) مع أنهم كانوا مسلمين، لكن لما ارتدوا، صاروا مع الكفار الأصليين.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧)﴾(٤).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠)﴾(٥).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (١٦٢)﴾(٦).

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ﴾(٧).

(١) سورة البقرة آية: ٢١٧.

(٢) سورة البقرة آية: ٢١٧.

(٣) سورة البقرة آية: ٢١٧.

(٤) سورة النساء آية: ١٣٧.

(٥) سورة آل عمران آية: ٩٠.

(٦) سورة البقرة آية: ١٦٢.

(٧) سورة المائدة آية: ٥٤.

وقال النبي ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»(١) (٢).

فقوله: «التارك لدينه المفارق للجماعة»(٣) المراد به: المرتد.

وقال ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»(٤) (٥).

١٠- الردة

فالردة هي الرجوع عن الإسلام. وتكون إما بالقول، وإما بالفعل، وإما بالاعتقاد، وإما بالترك.

أ - تكون بالقول: كأن يتكلم الإنسان بكلمة الكفر غير مكره، فيرتد بذلك عن الإسلام؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾(٦).

فإذا نطق الإنسان بكلمة الكفر؛ فإنه يحكم بكفره، إلا أن يكون مكرها؛ كما قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ﴾ ﴿اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩)﴾(١) فلم يعذر الله في التلفظ بكلمة الكفر إلا المكره.

(١) البخاري الديات (٦٤٨٤)، مسلم القسامة والمحاربين والقصاص والديات (١٦٧٦)، الترمذي الديات (١٤٠٢)، النسائي تحريم الدم (٤٠١٦)، أبو داود الحدود (٤٣٥٢)، ابن ماجه الحدود (٢٥٣٤)، أحمد (٦/١٨١)، الدارمي الحدود (٢٢٩٨).

(٢) متفق عليه من حديث ابن مسعود: البخاري: كتاب الديات، باب (٦)، رقم (٦٨٧٨)، (١٢/٢٥٠)، ومسلم: كتاب القسامة، باب (٦)، رقم (١٦٧٦)، (٦/١٦٦) واللفظ له.

(٣) البخاري الديات (٦٤٨٤)، مسلم القسامة والمحاربين والقصاص والديات (١٦٧٦)، الترمذي الديات (١٤٠٢)، النسائي تحريم الدم (٤٠١٦)، أبو داود الحدود (٤٣٥٢)، ابن ماجه الحدود (٢٥٣٤)، أحمد (١/٤٤٤)، الدارمي الحدود (٢٢٩٨).

(٤) البخاري الجهاد والسير (٢٨٥٤)، الترمذي الحدود (١٤٥٨)، النسائي تحريم الدم (٤٠٦٠)، أبو داود الحدود (٤٣٥١)، ابن ماجه الحدود (٢٥٣٥)، أحمد (١/٢٨٢).

(٥) أخرجه البخاري من حديث ابن عباس: كتاب الجهاد والسير، باب (١٤٩)، رقم (٣٠١٧)، (٦/١٨٠).

(٦) سورة التوبة آية: ٧٤.

أما غير المكره فإنه يكفر، سواء كان جادا، أي: قاصدا لمعنى الكلمة، أو كان هازلا لم يقصد معناها وإنما جاء بها عن طريق

المزاح واللعب، فإنه يكفر بها، وهذا بنص القرآن، وذلك لما تكلم أناس في غزوة تبوك وقالوا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء: أكذب ألسنا، وأرغب بطونا، وأجبن عند اللقاء، يعنون رسول الله ﷺ وأصحابه، فبلغت مقالتهم رسول الله ﷺ فجاءوا يعتذرون إليه مما قالوا في مجلسهم، وجعلوا يقولون: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾(٢)، فيقول لهم رسول الله ﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾(٣) (٤).

فإذا نطق بكلمة يستهزئ فيها بالدين، أو يستهزئ بالله أو برسوله، فإنه يكفر بذلك ولو كان يمزح ويلعب؛ لأن هؤلاء الذين نزلت فيهم الآية كانوا مؤمنين، وكانوا يقولون تلك الكلمة ويزعمون أنها من باب التسلية، ويقطعون بها عنهم تعب السفر؛ لأنهم كانوا مسافرين، ومع ذلك حكم الله بكفرهم ولم يقبل اعتذارهم، فهذا كفر بالقول.

ب - وقد يكون الكفر بالاعتقاد: كأن يعتقد شريكا لله أو يعتقد صحة ما عليه الكفار ولو لم ينطق بلسانه؛ لأن الله جل وعلا حكم بكفر المنافقين؛ لأنهم يعتقدون بقلوبهم الكفر مع أنهم ما نطقوا به، بل ينطقون بخلافه، فمن اعتقد الكفر بقلبه - ولو لم

ينطق بلسانه، ولو لم يعمل به - فإنه يكون كافرا كفر المنافقين الذين يظهرون الإسلام، ويعتقدون في قلوبهم خلاف ما يقولون بأفواههم.

---

(١) سورة النحل الآيات: ١٠٦-١٠٩.

(٢) سورة التوبة آية: ٦٥.

(٣) سورة التوبة الآيتان: ٦٥، ٦٦.

(٤) أخرج هذا الحديث ابن جرير في تفسير سورة التوبة، آية (٦٥)، رقم (١٦٩١٢).

وكذلك الشك والظن، فإن شك في حقائق الإيمان كفر؛ لقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾(١) إشارة لمن قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾(٢)، فلما شك في قيام الساعة كفر بذلك، والذي عنده شك في أمور الدين المعلومة منه بالضرورة يكون كافرا بنص هذه الآية الكريمة.

ج - وكذلك يكون الكفر بالفعل، إذا فعل أفعال الشرك وأفعال الكفر حكمنا عليه بالكفر: فإذا ذبح لغير الله، أو سجد لغير الله، أو استغاث بغير الله، فإنه يحكم بكفره، ولو قال: أنا ما أعتقد

هذا بقلبي، نقول: فعلك هذا كفر، ونحكم عليه بالكفر بما ظهر منك.

د - وكذلك الترك: إذا ترك شيئا من أمور الدين كالصلاة مثلا، فإذا ترك الصلاة متعمدا فإنه يحكم بكفره؛ لقوله ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»(٣) (٤) علق الكفر على ترك الصلاة متعمدا، فإما إذا كان غير متعمد فهذا لا يكفر بل يعد مخطئا.

وقال ﷺ: «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»(٥) فعلق الكفر على مجرد الترك ولو كان لم يجحد وجوبها، فأما إذا جحد وجوبها، فهذا كافر ولو صلى في الصف الأول، ولو كان يقول: إن الصلاة طيبة وعبادة، لكنها ليست واجبة، فهذا كافر بالإجماع، ولو كان يحافظ على الصلاة.

(١) سورة الكهف آية: ٣٧.

(٢) سورة الكهف آية: ٣٦.

(٣) الترمذي الإيمان (٢٦٢١)، النسائي الصلاة (٤٦٣)، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٠٧٩)، أحمد (٥/٣٤٦).

(٤) أخرجه الخمسة - إلا أبا داود - وقد تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه مسلم من حديث جابر، وتقدم تخريجه.

وكذلك من جحد وجوب الزكاة، أو وجوب الحج، أو وجوب الصيام، يكون كافرا ولو فعل هذه العبادات، ولكن الكلام في الذي يترك الصلاة وهو يعتقد وجوبها، فهذا يكفر بنص الحديث.

هذه بعض أنواع الردة على سبيل الإجمال، وإذا راجعت كتاب أحكام المرتد في كتب الفقه ترى العجب العجاب، حتى قال بعضهم: إن الردة تزيد على أربعمائة ناقض من نواقض الإسلام.

فالأمر خطير جدا، ولا يجوز أن يتهاون في هذا الأمر؛ لأنه في هذه الأيام بالذات، ظهر قول غريب، يقول أصحابه: إن الإنسان لا يكفر مهما فعل، ومهما قال، إلا إذا كان في قلبه مكذبا وجاحدا! يا سبحان الله! يغفل عن نصوص القرآن ونصوص السنة ويأتي بقول محدث! هذا تضليل للناس، وهذا تهوين من

شأن الكفر ومن شأن الشرك، والعياذ بالله، فيجب أن لا نغتر بهذا القول، ولا بمن قاله، وإن كان ينتسب إلى السنة وإلى السلف، فهذا قول لا يقبله صاحب سنة أبدا؛ لأنه مخالف للكتاب والسنة، وهو مبني على الجهل والقول على الله بلا علم، والجحود والتكذيب - كما تقرر سابقا - نوعان من أنواع الكفر، وليس محصورا فيهما.

فالواجب على المسلم: أن يكون على بصيرة من دينه ويأخذ دينه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا من أقوال الناس الذين هم عرضة للخطأ والصواب، ونحن نعتقد أن هؤلاء وقعوا في هذا لا عن قصد، وإنما وقعوا فيه عن جهل، نسأل الله لنا ولهم الهداية والبصيرة، والعلم النافع، والرجوع إلى الحق؛ فإن الرجوع إلى الحق فضيلة، والحق أحق أن يتبع وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدرس السابع

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

١- تمهيد في بيان أهميته

لا شك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على جانب عظيم من الدين، حتى عده بعض العلماء من أركان الإسلام، وفي بيان جبريل - عليه السلام - لما سأل النبي ﷺ عن الإسلام وذكر له أركان الإسلام الخمسة، قال: «... وأن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر».

وكان الصحابة يبايعون النبي ﷺ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وذلك أن الناس، وإن كانوا مسلمين ومؤمنين، لكن تقع منهم مخالفات، فالإنسان ضعيف تجره الشهوة والفتن إلى الشر، ويحتاج إلى من يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر؛ لأن داعي الشهوات والشبهات داع كبير، والله - جل وعلا - يمتحن إيمانه

نقص، أو المنافق الذي ليس عنده إيمان أصلا، فالله يمتحنهم ويبتليهم بما يعرض لهم من الشهوات والشبهات ودواعي الشرور، فكان لا بد من قيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأجل إصلاح ذلك الخلل.

فقد شبه النبي ﷺ "القائم على حدود الله"، أي: الملتزم بحكم الله القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "والواقع فيها"، أي: العاصي والمخالف، شبههم بقوم استهموا على سفينة في البحر، بعضهم أصاب أعلاها، أي الطابق العلوي، وبعضهم أصاب أسفلها، فكان الذين في الدور الأسفل يحتاجون إلى أن يصعدوا على الدور الأعلى ليستقوا الماء ويأخذوه للشرب والاستعمال، فقال بعضهم لبعض، أي: الذين في الدور الأسفل: لو خرقنا في قسمنا خرقا نأخذ منه الماء ولا نؤذي من فوقنا، فلو تركهم أهل الدور العلوي يخرقون السفينة، لغرق الجميع؛ إذ يدخل الماء السفينة ويغرق الجميع، وإن أخذوا على أيديهم ومنعوهم من خرق السفينة نجا الجميع(١).

فكذلك في حدود الله، والسفينة هنا: هي الشريعة؛ لأنه لا نجاة للبشر إلا بهذه الشريعة، والذي يخرقها: هو الذي يعصي

ويخالف، وهم أهل الدور الأسفل، والذين يمنعونهم ويأخذون على أيديهم هم أهل العلم والعقل والإيمان في الدور الأعلى، ولو تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخرقت الشريعة وغرقوا جميعا.

هذا مثل مطابق للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وأنه إذا قام أهل العلم وأهل العقول السليمة يأخذون على أيدي السفهاء، نجوا جميعا من الهلاك والعذاب، وأما إذا تركوهم وشأنهم وتساهلوا في أمرهم، فإنهم يخرقون الشريعة بالمعاصي ويغرق الجميع.

فهذا من الأمثلة النبوية العظيمة التي ضربها رسول الله ﷺ للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والمخالفين.

٢- الأدلة من القرآن على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

في القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على هذا الأمر قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)}(٢)

فهذا أمر من الله سبحانه وتعالى؛ لأن اللام في: {وَلْتَكُن} للأمر {أُمَّةٌ}، أي: جماعة، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فإذا قام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جماعة من أهل العلم والبصيرة، فإنهم قاموا بفرض الكفاية، وإذا تركه الجميع أثموا جميعا وهلكوا.

وقوله: {يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ}(٣) أي: يدعون إلى الإسلام وشريعته وإلى الإيمان.

---

(١) في حديث النعمان بن بشير، أخرجه البخاري: كتاب الشركة، باب (٦)، رقم (٢٤٩٣)، (٥/١٦٣).

(٢) سورة آل عمران آية: ١٠٤.

(٣) سورة آل عمران آية: ١٠٤.

قوله: {وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ}(١): الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من الدعوة إلى الله، ولكن الله - جل وعلا - أفرده بالذكر تأكيدا لشأنه، وإلا فهو داخل في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

والمراد بالمعروف: كل ما أمر الله - تعالى - به من الطاعات؛ سمي معروفا؛ لأن العقول السليمة تعرفه ولا تنكره.

والمنكر: كل ما نهى الله عنه؛ سمي منكرا؛ لأن العقول السليمة تنكره.

وأعظم الأمر بالمعروف: الأمر بالتوحيد، وبعده سائر الأوامر الشرعية وأعظم المنكر الشرك بالله ثم بقية المخالفات من الذنوب والمعاصي، فالمعروف إذا يشمل كل الطاعات، والمنكر يشمل كل المعاصي.

ثم قال جل وعلا: ﴿وَأُولَئِكَ﴾: أي: الذين يدعون إلى الله ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾(٢): حصر الفلاح فيهم، فدل على أن الذين يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر لا يفلحون.

وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(٣): هذا خطاب لهذه الأمة ﴿كُنتُمْ﴾، أي: أمة الإسلام ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(٤)؛ لأنهم أنفع الناس للناس، يدعونهم إلى الله ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر، ويخرجونهم من الظلمات إلى النور، ويبصرونهم، ويعلمونهم،

فهذه أمة هي خير أمة أخرجت للناس؛ لما تقوم به من نفع العالم لإخراجهم من الظلمات إلى النور، فخيرهم ليس قاصرا عليهم؛ بل هو متعد إلى غيرهم، فلذلك نالوا هذه الخيرية.

---

(١) سورة آل عمران آية: ١٠٤.

(٢) سورة آل عمران آية: ١٠٤.

(٣) سورة آل عمران آية: ١١٠.

(٤) سورة آل عمران آية: ١١٠.

وقوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(١): هذا من صفات هذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾(٢) أي: بكل طاعة وخير، ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(٣) أي: عن كل معصية وشر. ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ﴾(٤) فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خصال الإيمان ولذا قال بعده: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ﴾(٥) ذكر الخاص قبل العام، فالذي يريد أن يكون من خير أمة أخرجت للناس يقوم بهذا العمل: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

ولو تخلت هذه الأمة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذهبت خيريتها؛ لأنها إنما نالت هذه المرتبة وهذه الخيرية بهذه

الخصلة العظيمة: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(٦)، فهم يصلحون عقائد الناس، ويصلحون أعمالهم ومعاملاتهم وآدابهم، ويقيمونهم على دين الله ﷻ وأي نفع للعالم أعظم من هذا النفع؟

أما الذي يخرج للناس الآلات المدمرة والأسلحة الفتاكة، فهذا لا يريد الخير للناس، إنما يريد الهلاك، وإرادة الخير للناس هي في الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر.

وقال سبحانه مادحا بعض أهل الكتاب، ومستثنيا لهم من قومهم الذين اشتهروا بمخالفتهم لرسلهم وكتبهم، قال تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)﴾(٧) أي؛ قائمة على أمر الله سبحانه وتعالى.

(١) سورة آل عمران آية: ١١٠.

(٢) سورة آل عمران آية: ١١٠.

(٣) سورة آل عمران آية: ١١٠.

(٤) سورة آل عمران آية: ١١٠.

(٥) سورة آل عمران آية: ١١٠.

(٦) سورة آل عمران آية: ١١٠.

(٧) سورة آل عمران الآيتان: ١١٣، ١١٤.

فوصفهم بصفة صلاحهم في أنفسهم؛ يتلون كتاب الله آناء الليل ويؤمنون بالله واليوم الآخر، هذا صلاح أنفسهم، ثم ذكر من صفاتهم: إصلاحهم لغيرهم، فقال تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ﴾(١) فهم يصلحون غيرهم، فالمؤمن يريد الخير للناس كما يريده لنفسه؛ قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٢)(٣) والذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يريد للناس الخير، والذي لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر يريد للناس الشر.

ويتصور بعض الناس أن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يتدخل في أمور الناس، وأنه متعجل!! وهذا من انتكاس

المفاهيم.

والحق أن الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إنما يريد للناس الخير، يريد لهم الإصلاح، والذي يسكت ويقول أنا لا أتدخل في شئون الآخرين!! هذا هو الذي يريد للناس الشر، ولا يحب لهم الخير.

وقال سبحانه في سورة المائدة لما ذكر ما وقع من أهل الكتاب من قولهم الإثم وأكلهم السحت، قال سبحانه: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)﴾(٤) قوله: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا، وهذا لوم من الله جل وعلا لعلماء أهل الكتاب الذين سكتوا وتركوا قومهم يقولون الإثم، يتكلمون بكل كلام قبيح، ولا ينهونهم، ويأكلون السحت، وهو: الحرام من الرشوة والربا وغير ذلك، ولا ينهونهم، فسكوت علمائهم وعبادهم هو الذي سبب لهم التمادي في هذه المحرمات؛ لأنهم لم يجدوا من يردعهم ويأخذ بأيديهم. ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣)﴾(١) أي لبئس ما كان يصنع هؤلاء الربانيون والأحبار، وهو السكوت عن المنكر، ذمهم الله سبحانه وتعالى على هذا الصنيع، وهو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، وترك الناس يفسدون في الأرض، ولا يبينون لهم ولا ينكرون عليهم، فإن سكوت العلماء يجرئ الفسقة والسفهاء، ويحملهم على التمادي، فلذلك استحقوا لعنة الله عز وجل؛ كما قال تعالى في هذه السورة: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)﴾(٢)، لعنهم الله سبحانه وتعالى، واللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله عز وجل. لعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، وهذان نبيان من أنبياء بني إسرائيل، أنزل الله لعنتهم على لسان هذين النبيين الكريمين، والسبب هو ما ذكره بقوله: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ﴾(٣) أي: أنهم كانوا يرى بعضهم بعضا على المعاصي ولا ينكر عليه، فلما حصل منهم ذلك لعنهم وطردهم من رحمته سبحانه وتعالى، وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «أن أحدهم يلقى الرجل على المعصية في طريقه فينهاه عن ذلك، فيقول: يا فلان، اتق الله، إن ذلك لا يحل لك، ثم يراه في اليوم الثاني فينهاه، ثم يراه في اليوم الثالث فلا يكلمه بشيء، ولا يمنعه ذلك من أن يكون أكيله

وجليسه، فلما رأى الله ذلك منهم، ضرب قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على ألسنة أنبيائهم»(٤)(٥).

---

(١) سورة آل عمران آية: ١٠٤.

(٢) البخاري الإيمان (١٣)، مسلم الإيمان (٤٥)، الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١٥)، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠١٦)، ابن ماجه المقدمة (٦٦)، أحمد (٣/٢٧٢)، الدارمي الرقاق (٢٧٤٠).

(٣) متفق عليه من حديث أنس: البخاري: كتاب الإيمان باب (٧)، رقم (١٣)، (١/٧٩)، واللفظ له. ومسلم: كتاب الإيمان، باب (١٧)، رقم (٤٥)، (١/٢٠٦).

(٤) سورة المائدة آية: ٦٣.

---

(١) سورة المائدة آية: ٦٣.

(٢) سورة المائدة آية: ٧٩.

(٣) سورة المائدة آية: ٧٩.

(٤) الترمذي تفسير القرآن (٣٠٤٧)، أبو داود الملاحم (٤٣٣٦)، ابن ماجه الفتن (٤٠٠٦).

(٥) كما في حديث ابن مسعود، أخرجه أبو داود. كتاب الملاحم، باب (١٧)، رقم (٤٣٣٦)، (٤/٣٢٩). والترمذي: كتاب التفسير، باب (٥)، رقم (٣٠٥٦)، (٥/٢٥٢). وأخرجه ابن ماجه مرسلا عن أبي عبيدة: كتاب الفتن، باب (٢٠)، رقم (٤٠٠٦)، (٤/٣٦٠).

وقال ﷺ لهذه الأمة: «كلا، والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد السفيه، ولتأطرنه على الحق أطرا، ولتقصرنه على الحق قصرا، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما لعنهم»(١)(٢).

وما ذكره الله -جل وعلا- عن أهل الكتاب من الذنب والوعيد، نحن المخاطبون به من أجل أن نتجنب فعلهم وطريقهم، فالله -جل وعلا- ما ذكر لنا في الكتاب من الذم والوعيد إلا من أجل أن نتجنب طريقهم، ونحذر مما سبب لهم ذلك من المخالفات.

وقال في سورة الأعراف لما ذكر وصف النبي ﷺ في التوراة: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾(٣) يعني محمدا ﷺ ﴿النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(٤) هذا من صفات هذا الرسول ﷺ أنه جاء إلى العالمين يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ومنهم أهل الكتاب.

ثم ذكر في هذه السورة أيضا قصة أصحاب القرية: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾(٥) أي: على ساحل البحر،

ومعلوم أن البحر فيه الصيد، صيد الأسماك التي يأكل منها الناس لحما طريا، كانت هذه القرية على ساحل البحر فأراد الله -جل وعلا- أن يمتحنهم بسبب ذنوبهم فحرم عليهم صيد السمك (الحيتان) يوم السبت، فماذا فعلوا؟ عملوا حيلة على أمر الله سبحانه وتعالى، وذلك أنهم حفروا حفرا وجعلوا عليها الشباك، فإذا جاء سمك في يوم السبت وقع في هذه الحفر، وأمسكته الشباك، فإذا جاء يوم الأحد انتهى النهي، فجاءوا وأخذوها!! وزعموا بذلك أنهم اجتنبوا المنهي عنه يوم السبت وما صادوا فيه، وإنما وقعت في الحفر وصادته الشباك.

---

(١) الترمذي تفسير القرآن (٣٠٤٧)، أبو داود الملاحم (٤٣٣٦)، ابن ماجه الفتن (٤٠٠٦).

(٢) أخرجه أبو داود من حديث ابن مسعود السابق برقم (٤٣٣٦، ٤٣٣٧).

(٣) سورة الأعراف الآيتان: ١٥٦، ١٥٧.

(٤) سورة الأعراف آية: ١٥٧.

(٥) سورة الأعراف آية: ١٦٣.

ومن الذي حفر الحفر؟! ومن الذي نصب الشباك؟! هل الله يخادع سبحانه وتعالى؟! هذه حيلة على أمر الله سبحانه

وتعالى، قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ﴾(١) هذا من الابتلاء، في يوم النهي تأتي الحيتان والأسماك كثيرة جدا مما يغريهم بالصيد، فإذا جاء يوم الأحد اختفت الحيتان، وهذا ابتلاء لهم، لكنهم لم يجتنبوا المنهي عنه، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم﴾(٢) أي: نمتحنهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣)﴾(٣).

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤)﴾(٤).

فهم انقسموا قسمين عند هذه الفعلة الشنيعة:

أ - قسم سكتوا، ورأوا أنه لا فائدة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ﴾(٥).

ب - وقسم أنكروا هذا الشيء وحذروهم، فقال الذين سكتوا للذين أنكروا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ﴾(٦) قال الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر:

{مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤)}[1] أي: لأنا قمنا بما أمرتنا به، ولم نسكت، ولعل الله يلقي في قلوبهم القبول للموعظة، فلا ييأس الداعية من أن العاصي يقبل النصيحة وينتفع بها.

---

(١) سورة الأعراف آية: ١٦٣.

(٢) سورة الأعراف آية: ١٦٣.

(٣) سورة الأعراف آية: ١٦٣.

(٤) سورة الأعراف آية: ١٦٤.

(٥) سورة الأعراف آية: ١٦٤.

(٦) سورة الأعراف آية: ١٦٤.

وأنت إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، أنت بين أمرين طيبين: إما أن تنفع نصيحتك، وينقذ الله بك هذا العاصي وإما أن تبرأ ذمتك.

ولا تكن من الساكتين؛ لأن السكوت على المعاصي لا يجوز.

فلما لم يقبلوا النصيحة وعتوا عما نهوا عنه، أخبر الله عنهم أنهم {نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ}[2] أي: ذكرهم به أهل النصيحة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و{نَسُوا}: يعني: تركوا،

والنسيان يطلق ويراد به الترك، وليس المعنى أنهم ذهلوا عنه وذهب من ذاكرتهم، لكنهم تركوه عمدا، فالنسيان يطلق على الترك كما قال الله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾(٣) أي تركهم في العذاب ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾(٤): أي: تركوا. قال الله تعالى: ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾(٥): وهم الذين أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر. ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾(٦) حين وقعوا في المنكر، أخذهم الله ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥)﴾(٧) حيث تمردوا عما نهوا عنه من المعصية ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)﴾(٨) حول الله صورهم من صور آدميين إلى صور قردة، عذابا لهم، والعياذ بالله، مسخهم الله هذا المسخ.

(١) سورة الأعراف آية: ١٦٤.

(٢) سورة الأعراف آية: ١٦٥.

(٣) سورة التوبة آية: ٦٧.

(٤) سورة الأعراف آية: ١٦٥.

(٥) سورة الأعراف آية: ١٦٥.

(٦) سورة الأعراف آية: ١٦٥.

(٧) سورة الأعراف آية: ١٦٥.

(٨) سورة الأعراف آية: ١٦٦.

وأما الذين نهوا عن المنكر فأنجاهم الله عز وجل.

وأما الذين سكتوا، فالله لم يذكرهم بشيء، لا بنجاة ولا بهلاك، بل أخبر أنه أنجى الذين ينهون، وأنه أهلك الذين عتوا عن أمر الله سبحانه وتعالى، وأما المؤمنون الذين سكتوا فإن الله سكت عنهم، لم يذكر في حقهم لا هلاكا ولا نجاة، والظاهر -والله أعلم- أنهم هلكوا مع الهالكين؛ لأن الناس إذا رأوا منكرا ولم ينكروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده، فإذا جاء العقاب عم الصالح والطالح، كما قال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ

ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥)﴾(١) فيأخذ العاصي بمعصيته، ويأخذ الساكت بسكوته وعدم إنكاره.

وقال سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩)﴾(٢) أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر بالمعروف، فالأمر بالمعروف هو من سنة النبي ﷺ كما أنه من صفته في التوراة: أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر عليه الصلاة والسلام.

وكذلك المؤمنون المقتدون به يقومون بهذا العمل العظيم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقد بين النبي ﷺ أنهم في آخر الزمان يكونون غرباء؛ فقال ﷺ: «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء»(٣)(٤) قيل من هم يا رسول الله؟ قال: «الذين يصلحون إذا فسد الناس»(١)(٢) وفي رواية: «الذين يصلحون ما أفسد الناس»(٣)(٤) فهؤلاء الغرباء يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وخصوصا إذا كثر الفساد، فإنهم يقومون بالواجب، ويصبرون على ما ينالهم من الأذى والاستغراب.

(١) سورة الأنفال آية: ٢٥.

(٢) سورة الأعراف آية: ١٩٩.

(٣) مسلم الإيمان (١٤٥)، ابن ماجه الفتن (٣٩٨٦)، أحمد (٢/٣٨٩).

(٤) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة: كتاب الإيمان، باب (٦٥)، رقم (١٤٥)، (١/٣٥٤). ونحوه عن ابن عمر (٣٧١).

فالذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر الآن، تجد الناس يسفهونه ويلمزونه، ويقولون: ما عنده عقل، يتدخل في أمور الناس، وليقولوا ما يقولون؛ فإن هذا لن يؤثر عليه؛ لأنه لا بد أن يعلم أن طريق الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا بد فيه من عقبات، والذي نيته لله لا يبالي بهذا الكلام، ولا يتراجع عن القيام بهذه الفضيلة، أما الذي تكون نيته الرياء، أو حظوظ الدنيا، فهذا سرعان ما يتراجع إذا سمع مثل ذلك.

وقال تعالى في وصف المؤمنين في سورة التوبة: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾(٥).

ذكر أول صفات المؤمنين أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأن هذين الأمرين يقوم بهما الرجال والنساء، وليس هو خاص بالرجال، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (٦) يعني: يحب بعضهم بعضا وينصره، مأخوذ من الولاية، وهي: الحب والنصرة والمؤازرة، فـ«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»(١)(٢) وأما التفكك فهذا من صفات المنافقين، أما المؤمنون فبعضهم أولياء بعض، جسد واحد وبنيان واحد، يتناصحون، يتآمرون بالمعروف ويتناهون عن المنكر، ويصلح بعضهم فساد بعض؛ حتى يسلم البناء والجسد من الدخيل.

---

(١) أحمد (٤/٧٤).

(٢) أخرج هذه الزيادة من سياق آخر عبد الله بن أحمد من حديث عبد الرحمن بن سنة: برقم (١٦٨١٠)، (٥/٧٠٧) في زوائد المسند.

(٣) الترمذي الإيمان (٢٦٣٠).

(٤) أخرج هذه الزيادة الترمذي: كتاب الإيمان، باب (١٣)، رقم (٢٦٣٥)، (٥/١٨) من سياق آخر.

(٥) سورة التوبة آية: ٧١.

(٦) سورة التوبة آية: ٧١.

وهذا الأمر عام للرجال والنساء: الرجال يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، والنساء يأمرن بالمعروف وينهين عن المنكر، كل بحسب استطاعته، فالمرأة مع أخواتها وجاراتها، ومن تجتمع بهن، وفي بيتها، ولا يسعها السكوت فهي مؤمنة، لا بد أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر بحسب استطاعتها.

وجزاء هؤلاء ما أخبر به الله -جل وعلا- بقوله: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١)﴾(٣).

بخلاف حال المنافقين فإن الله ذكرهم في الآية التي قبل هذه بقوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ﴾(٤)، فمن صفاتهم: أنهم يأمرون بالمنكر: أي بالمنكرات والمعاصي والفساد، واتباع الشهوات، يأمرون بالإباحية، ويأمرون بكشف العورات وينهون عن الستر، ينهون عن الحجاب، ينهون عن الصلاة وحضور المساجد، ينهون عن الطاعات، يثبطون عن الخير، هذه صفات المنافقين: ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ﴾(٥) فهم يأمرون بجميع المعاصي والفساد، ويدعون

إليه ويرغبون فيه، وينهون عن المعروف، وعن الطاعات ويقللون من أهميتها مهما استطاعوا، هذه مهمة المنافقين.

---

(١) البخاري الصلاة (٤٦٧)، مسلم البر والصلة والآداب (٢٥٨٥)، الترمذي البر والصلة (١٩٢٨)، النسائي الزكاة (٢٥٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٨١) ومسلم (رقم ٢٥٨٥).

(٣) سورة التوبة آية: ٧١.

(٤) سورة التوبة آية: ٦٧.

(٥) سورة التوبة آية: ٦٧.

وقوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ﴾(١): بمعنى أنهم بخلاء لا يخرجون الزكاة، لا يتصدقون على المحتاجين، لا ينفقون في وجوه الخير، فمن صفاتهم قبض الأيدي عن الإنفاق.

وكذلك أنهم ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾(٢): فلم يقوموا بطاعته سبحانه وتعالى وبعمل ما أمرهم به، نسوا العمل الصالح الذي يقربهم إلى الله ﴿فَنَسِيَهُمْ ۗ﴾(٣): يعني: تركهم وأهملهم، ولم يعبأ بهم عقوبة لهم، لما أعرضوا عن الله أعرض الله عنهم؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧)﴾(٤): أي: الخارجون عن طاعة الله وعن دينه وشرعه، سجل الله عليهم هذه الصفات القبيحة.

فتبين من هذا أن من صفات المنافقين: أنهم يأمرون بالمنكر، ويحسنون المعاصي للناس، ويدعونهم إليها، ويزينونها لهم، ويقولون: هي الرقي والحضارة والتقدم! فأما العبادات والطاعات فهذه معوقات عن التقدم وعن الرقي وعن الحضارة!! هذا بزعمهم وهذا كلامهم الآن.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من صفات أهل البيعة مع الله سبحانه وتعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ﴾(٥).

(١) سورة التوبة آية: ٦٧.

(٢) سورة التوبة آية: ٦٧.

(٣) سورة التوبة آية: ٦٧.

(٤) سورة التوبة آية: ٦٧.

(٥) سورة التوبة آية: ١١١.

قوله: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ﴾(١) المشتري في هذه البيعة هو الله سبحانه وتعالى، والبائع هو المؤمن، والسلعة هي الأنفس والأموال، والثمن هو الجنة، والجنة أعظم المطالب، والساعي في هذه البيعة هو رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ﴾(٢) ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾: الكفار، ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾: يستشهدون في سبيل الله.

وقوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ﴾(٣): سجلت هذه البيعة في الكتب الثلاثة، وهذه أعظم الكتب، وهذه وثيقة البيع، وقوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ﴾(٤) الجواب: لا أحد أوفى بعهده من الله سبحانه وتعالى، فلا يخافون نقض البيع أو نقص الثمن، فالله جل وعلا هو أوفى من يتعاقد معه

سبحانه وتعالى؛ ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)﴾(٥).

ثم قال في صفاتهم: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(٦) فذكر من صفاتهم ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(٧): وهذا يدل على عظم منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) سورة التوبة آية: ١١١.

(٢) سورة التوبة آية: ١١١.

(٣) سورة التوبة آية: ١١١.

(٤) سورة التوبة آية: ١١١.

(٥) سورة التوبة آية: ١١١.

(٦) سورة التوبة آية: ١١٢.

(٧) سورة التوبة آية: ١١٢.

والله سبحانه وتعالى عده مع هذه الأوصاف العظيمة، فكيف يأتي من يهون من شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد ذلك! ويقول: هذا تدخل في أحوال الناس تتبع للعثرات، وتتبع

لعورات الناس!! فيشوهون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذه الأمور.

وذكر -سبحانه وتعالى- في آخر سورة هود الأمم وما حل بهم من الهلاك، وقص قصصهم، ثم قال: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾(١) فلولا كان في هذه الأمم التي أهلكها الله من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى لا يصيبهم ما حل بهم من هذا الدمار، فالسبب الذي أهلكوا به هو أنه ليس فيهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾(٢) فدل على أن الذي ينجو هو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أما غيرهم فقد قال عنهم: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦)﴾(٣)، نسأل الله العافية، ولذلك حلت بهم العقوبات التي ذكرها الله تعالى في سورة هود، والتي تشيب النواصي، وتفلذ الأكباد، لو أن هناك من يصغي لكلام الله سبحانه وتعالى.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)﴾(٤) قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾: يعني: بالمعاصي والمخالفات، ﴿بِظُلْمٍ

وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)}[٥]، أي: لو كان فيها من يصلح، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لدفع الله عنهم العذاب، أي: لا يهلكها إلا بانتشار المعاصي وعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فدل على أن وجود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأمة، ضمان من وقوع العذاب، وأن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مؤذن بوقوع العقاب العاجل.

---

(١) سورة هود آية: ١١٦.

(٢) سورة هود آية: ١١٦.

(٣) سورة هود آية: ١١٦.

(٤) سورة هود آية: ١١٧.

(٥) سورة هود آية: ١١٧.

ما أهلك الله أمة من الأمم إلا بسبب أنه ليس فيهم رشيد يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

وقال تعالى في سورة الحج: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ

الْأُمُورِ (٤١)﴾(١) فمن اتصفوا بهذه الصفات مكنهم الله في الأرض وأقام لهم دولتهم.

وهذه الصفات هي: ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾(٢): انظر كيف قرن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الصلاة والزكاة، فكيف يأتي من يهون من هذا الجانب! والله قرنه بالصلاة والزكاة، والله أقسم ووعد على هذه الصفات، بالنصر والتمكين في الأرض لمن اتصفوا بها، فقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾(٣)، وهذا وعد من الله جل وعلا، ومعنى: ﴿يَنصُرُهُ﴾(٤) أي: يطيعه ويفعل ما أمره به ويترك ما نهى عنه، وينصر دينه، ويعلي كلمته في الأرض، ومعنى نصرة الله له: أنه يؤيده ويعليه ويمكن له، وينصره على عدوه. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)﴾(٥): أي: كلها بيد الله سبحانه وتعالى، فهو يعامل الناس بحسب أعمالهم، فمن عامل الله معاملة حسنة، فأقام الصلاة وآتى الزكاة، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، نصره الله، ومكنه في الأرض، ومن ضيع هذه الأمور، ضيعه الله سبحانه وتعالى.

(١) سورة الحج الآيتان: ٤٠، ٤١.

(٢) سورة الحج آية: ٤١.

(٣) سورة الحج آية: ٤٠.

(٤) سورة الحج آية: ٤٠.

(٥) سورة الحج آية: ٤١.

وقال في سورة النور: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)﴾(١) وعد الله الذين آمنوا بهذه الوعود العظيمة: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾(٢) يجعل الخلافة لهم على الناس، ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ﴾(٣) بشرط: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ﴾(٤): فمن وفى لله -سبحانه وتعالى- وفى الله له ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾(٥) وقد عرفنا أن من عبادة الله: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والأمر

بالمعروف، والنهي عن المنكر، هذا من عبادة الله سبحانه وتعالى.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قرين الصلاة والزكاة في كتاب الله فمن قام به مع الصلاة والزكاة فإن الله يمنحه هذه الوعود العظيمة.

وفي وصايا لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾(٦) يأتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع إقامة الصلاة في عدة مواضع.

في أكثر الآيات التي مرت يأتي بعد الأمر بالمعروف بالنهي عن المنكر مع الصلاة والزكاة، ولم يكتف بالأمر بالمعروف؛ بل لا بد من النهي عن المنكر، فلا يكفي أنك تقول للناس: صلوا، وحجوا، واعتمروا؛ بل لا بد أن تقول لهم: اتركوا ما نهاكم الله عنه من الذنوب والمعاصي، والسيئات والمخالفات العامة والخاصة، تنهاهم عن الزنا، وعن السرقة، وعن شرب الخمر، وعن ترك الصلاة، وكل المخالفات، فلم يكتف الله بالأمر بالمعروف؛ بل قرن معه النهي عن المنكر؛ لأنه لا يصلح هذا إلا بهذا، فدل على أنهما أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن من الناس

من يعمل أعمالا كثيرة من الخير، لكنه يخلطها بالشر والمعاصي، وربما تحبط أعماله بسببه ذلك، ربما رجحت سيئاته على حسناته، فيهلك يوم القيامة، فلا يكفي أنك تأمر بالمعروف، وتحث الناس على الخير، بل لا بد بجانب ذلك أنك تنهى الناس عن المنكر وعن الشر.

---

(١) سورة النور آية: ٥٥.

(٢) سورة النور آية: ٥٥.

(٣) سورة النور آية: ٥٥.

(٤) سورة النور آية: ٥٥.

(٥) سورة البقرة آية: ٤٠.

(٦) سورة لقمان آية: ١٧.

وقد يفرد أحدهما مراعاة لمقتضى الحال، فيدخل فيه الآخر كقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾(١)، وقال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾(٢)؛ وذلك لأن الأمر والنهي متلازمان، فالأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده، والنهي عن الحرام أمر بأخذ الحلال.

وسورة العصر يقول الله -سبحانه وتعالى- فيها: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢)﴾(٣) أي: كل إنسان، ما استثنى أحدا، لا الملوك والصعاليك، ولا الأحرار ولا العبيد، ولا الذكور ولا الإناث، ولا العرب ولا العجم، كل الناس خاسرون إلا من اتصف بأربع صفات فإنه ينجو من هذه الخسارة:

الصفة الأولى: الإيمان بالله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾(٤) أي: آمنوا بالله -سبحانه وتعالى- إيمانا صحيحا جازما، ويدخل فيه توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته، وبعبادته حق العبادة، ولا بد مع ذلك من العلم؛ لأن الإيمان يقوم على العلم، ولا يصلح إلا بالعلم والتعلم، وتعلم العلم يدخل في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾(١)؛ لأن الإيمان لا يقوم إلا على العلم، والمراد بالعلم هنا: العلم بالله سبحانه وتعالى وشرعه.

---

(١) سورة الأعراف آية: ١٩٩.

(٢) سورة المائدة آية: ٧٩.

(٣) سورة العصر آية: ٢.

(٤) سورة العصر آية: ٣.

الصفة الثانية: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾(٢): أي الطاعات الواجبة والمستحبة.

الصفة الثالثة: التواصي بالحق، هذا هو محل الشاهد: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾(٣): والمراد به هنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الصفة الرابعة: التواصي بالصبر، هذا هو محل الشاهد: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾(٤): لما كان الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، يتعرض لأذى الناس ولمضايقاتهم، ويلقى من الناس اللوم والتوبيخ، أو التهديد، أو غير ذلك من المعوقات، كان لا بد له من صبر على ما يلقى، كما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ﴾(٥).

هذه أمثلة من الآيات القرآنية التي تتناول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١) سورة العصر آية: ٣.

(٢) سورة العصر آية: ٣.

(٣) سورة العصر آية: ٣.

(٤) سورة العصر آية: ٣.

(٥) سورة لقمان آية: ١٧.

٣- مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

جاءت السنة المطهرة فبينت مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنها تبين القرآن وتوضحه، فقال ﷺ: «من رأى منكم»(١): وهذا كلام عام لجميع المؤمنين، «منكرا» أي منكر، لم يخصه بمنكر معين؛ بل قال: (منكرا)، وهذا نكرة فيعم كل منكر، «فليغيره بيده»(٢)، أي: يزيله بيده، «فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»(٣)(٤). فجعل الناس إزاء المنكر ثلاثة أقسام:

قسم له سلطة ومقدرة، فيزيل المنكر بيده، وهو السلطان أو نائبه، أو رجال الحسبة الذين وكل إليهم ولي الأمر هذا الشأن، وكذلك صاحب البيت له يد على أهل بيته، لا أحد يعترض عليه،

حتى السلطان لا يعترض على صاحب البيت في بيته. فصاحب البيت له سلطة ويد، ولهذا قال ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع»(٥)(٦) وقول الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾(١)، ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾(٢).

(١) مسلم الإيمان (٤٩)، الترمذي الفتن (٢١٧٢)، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٠٩)، أبو داود الصلاة (١١٤٠)، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢٧٥)، أحمد (٣/٥٤).

(٢) مسلم الإيمان (٤٩)، الترمذي الفتن (٢١٧٢)، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٠٨)، أبو داود الصلاة (١١٤٠)، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢٧٥)، أحمد (٣/١٠).

(٣) مسلم الإيمان (٤٩)، الترمذي الفتن (٢١٧٢)، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٠٩)، أبو داود الصلاة (١١٤٠)، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢٧٥)، أحمد (٣/١٠).

(٤) أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد، وقد تقدم تخريجه.

(٥) أبو داود الصلاة (٤٩٥)، أحمد (٢/١٨٧).

(٦) أخرجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أحمد: برقم (٦٧٥٣)، (٢/٢٤٨). وأبو داود: كتاب الصلاة، باب (٢٦) رقم (٤٩٥)، (١/٢٣٩) وأخرجه الترمذي بنحوه من حديث الربيع بن سبرة عن أبيه عن جده: كتاب الصلاة، باب (١٨٢)، رقم (٤٠٧)، (٢/٢٥٩).

وولي الأمر له سلطة، فيغير المنكر بيده، ولا أحد يعترض عليه؛ لسلطته.

المرتبة الثانية: إذا كان الإنسان ليس عنده سلطة؛ بل هو من سائر الناس، فهذا ينكر المنكر بلسانه، بمعنى أنه ينصح ويعظ

ويذكر، ويبين للناس أن هذا لا يجوز على سبيل العموم، ويبين للواقع في الخطأ سرا فيما بينه وبينه، كأن يقول: لا ينبغي منك هذا يا فلان، وأنت رجل طيب، من أسرة طيبة، ولا يليق بك هذا، ولا يناديه أمام الناس، لكن فيما بينه وبينه.

ومن الإنكار باللسان: تبليغ ولاة الأمور عن المنكرات، وكذلك الإنكار بالقلم، بأن يكتب الإنسان في الصحف والمجلات، يحذر الناس من المعاصي والمنكرات، فهذا من الإنكار باللسان.

المرتبة الثالثة: إذا لم يستطع أن يتكلم، بأن يكون ليس عنده علم، ولا يعرف الحلال والحرام، أو عنده علم لكن منعه من الكلام مانع، فهذا ينكر المنكر بقلبه، ويبغضه، ويبتعد عن أهله، ولا يجالسهم، ويؤاكلهم، ويشاربهم، ويضحك معهم، كما فعله بنو إسرائيل.

قال ﷺ عن هذه المرتبة: «وذلك أضعف الإيمان»(٣) أي: الإنكار بالقلب أضعف الإيمان، وفي رواية: «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»(٤)(٥) فمن لم ينكر المنكر ولا بقلبه، هذا ليس عنده إيمان؛ لأنه لو كان عنده إيمان ولو كان ضعيفا؛ لأنكر

المنكر بقلبه على الأقل، وإذا أنكر المنكر بقلبه ابتعد عن أهله، وعن مجالستهم؛ لئلا يصيبه ما أصابهم.

---

(١) سورة طه آية: ١٣٢.

(٢) سورة التحريم آية: ٦.

(٣) مسلم الإيمان (٤٩)، الترمذي الفتن (٢١٧٢)، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٠٩)، أبو داود الصلاة (١١٤٠)، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢٧٥)، أحمد (٣/١٠).

(٤) مسلم الإيمان (٥٠).

(٥) تقدم تخريجه.

والله تعالى أعلم. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

صحيح البخاري

صحيح مسلم

مسند الإمام أحمد بن حنبل

سنن أبي داود

سنن الترمذي

سنن النسائي

سنن ابن ماجه

سنن البيهقي

مستدرك الحاكم

المعجم الأوسط للطبراني

مصنف ابن أبي شيبة

صحيح ابن حبان

صحيح الجامع للألباني

تفسير الطبري

تفسير ابن أبي حاتم

شعب الإيمان للبيهقي

الحلية لأبي نعيم

كتاب الزهد للإمام أحمد

مدارج السالكين للإمام ابن القيم

النونية للإمام ابن القيم

جامع العلوم والحكم للحافظ ابن رجب